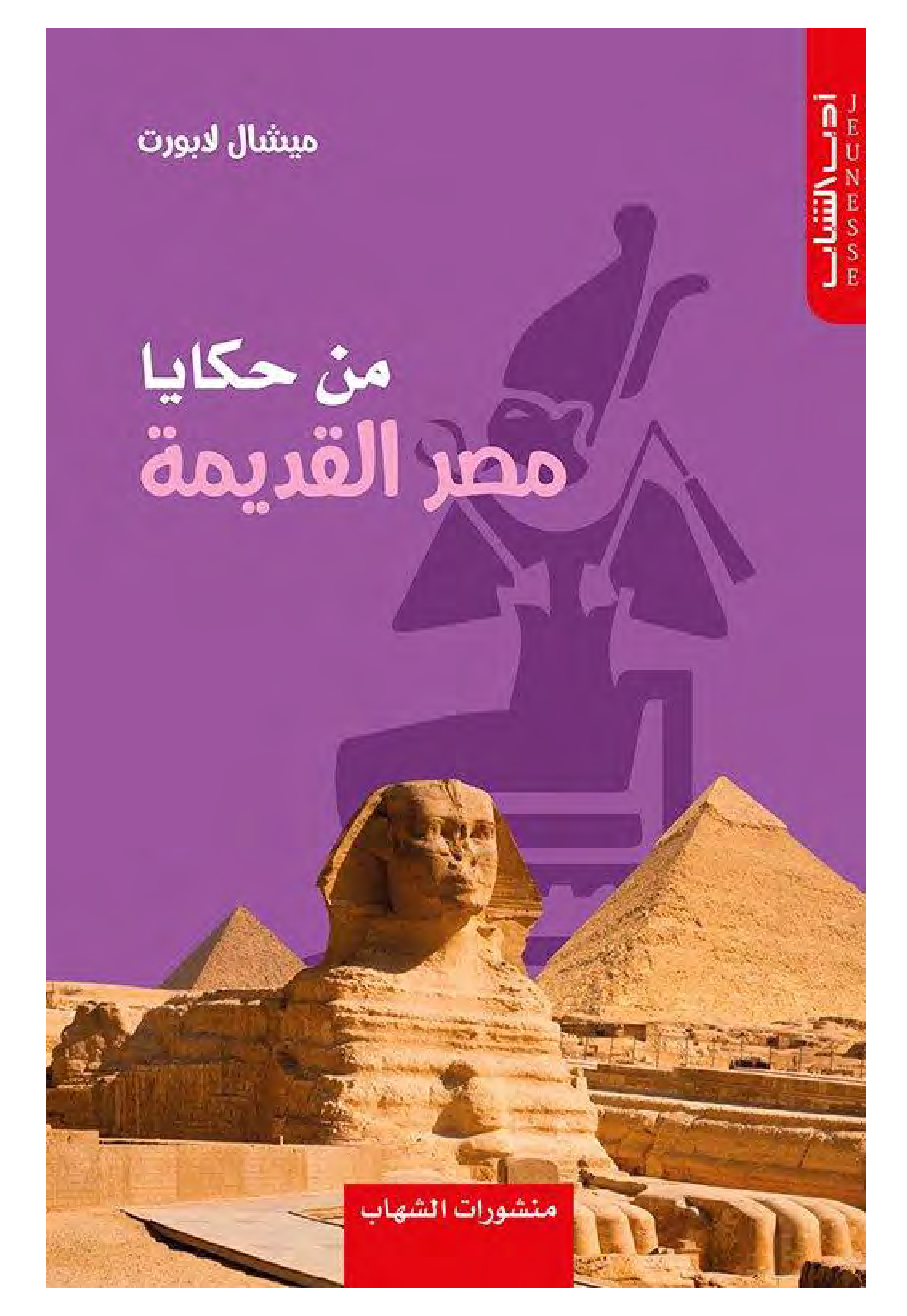

ميشال لابورت
من حكايا
مصر القديمة
أدب الشباب
JEUNESSE
منشورات الشهاب

ميشال لابورت

من حكايا مصر القديمة

تحت إشراف السيدة إنعام بيوض
مديرة المعهد العالي العربي للترجمة

منشورات الشهاب

تمت ترجمة هذا الكتاب في إطار برنامج دعم النشر
بالمعهد الفرنسي بالجزائر.

INSTITUT
FRANÇAIS
ALGÉRIE

Titre original
11 contes de l'Égypte ancienne par "Michel Laporte"

10، نهج إبراهيم غرافة، باب الواد، الجزائر.
الموقع الإلكتروني : www.chihabeducation.com
الهاتف : 97 54 53 021 / الفاكس : 91 51 97 021
ردمك : 978-9947-39-329-1
الإيداع القانوني : أفريل 2019

تمهيد

كان المصريون من أوائل من استخدم الكتابة. وقد استُعملت لأوّل وهلة بغرض الحساب، أو بالأحرى لتسجيل وحفظ ما يُحصى كي لا تُغيّبه ذاكرة الإنسان، فتمّ إحصاء أوزان القمح وأعداد رؤوس الخرفان والبقر والأواني والأدوات والسكان الذين يقطنون في مختلف الأصقاع والبقاع. وباتت هذه القياسات، وقد سُجّلت كتابيا، أكثر يُسرًا في تبليغها إلى المشرف على الأموال، ثم إلى الملك البعيد.

بَيْدَ أنّ مستخدمي الكتابة الأوائل سرعان ما اكتشفوا قِواها السحرية : إنّها قدراتها في تصوير الأشياء والديكورات والحركات والشخصيات، وحينما تصوّرها فإنها تُعيد خلقها، لا بل تخلقها أصلًا. وهكذا انتشرت الصيغ السحرية على جدران القبور والأضرحة، وهكذا أيضًا وُلد الأدب المصري المكتوب. وفي الواقع، فإننا هنا، بين غيابات هذه الأجداث، وجدنا أقدم حكايات هذا الأدب، حكاياتٌ عكست بشكل خاص معتقدات المصريين القدامى وتصوّراتهم الدينية.

وإنْ هي إلّا فترة قصيرة حتى حلّت أوراق البردي محلّ الجدران، ذلك لأنها مواد أكثر ملائمة للكتابة. وفي ذات الوقت، فَقَدَ الأدب وظيفته الدينية، وانتقل الكُتاب إلى طَرْق المواضيع التي تهدف إلى التسلية والإغراء. وقد تميّز هذا الأدب الضارب في القِدم عمومًا بتعقيداته وأسلوبه المنمّق ؛ ذلك أنّه كان مُوجّها إلى نخبة من القرّاء المتعلمين الذين كانوا قلّة آنذاك.

***

الآلهة، والرجال، والحيوانات، تِلكُم هي الموضوعات الثلاثة التي تدور حولها القصص الواردة في هذه المجموعة. ويشوب الحكاية الاستهلالية بعض الغموض، إذ نرى البطل في البدء إنسانًا بكامل سماته البشرية، ثم يستحيل بعدها إلى رجل مُخلّد، وفي الأخير نجِده يتقمّص أجساد الحيوانات والأشجار.

أما بالنسبة للقصص التي تتحدث عن الآلهة، فهي تحكي عن كيفية نشأة الخلق والعالَم. ويبدو هذا طبيعيا جِدًّا، إذا ما أخذنا في الاعتبار أنّ جُلّ الحضارات الكبرى تُطلعنا على حكايات ونصوص تطرق نفس هذا الغرض. ولكن ما يبعث على الذهول هنا، ويصنع فرادة الرؤية التي كانت للمصريين

عن آلهتهم، هو ذاك المزج بين روح الدعابة والعاطفة. ولنا أن نعتقد، حسب معرفتنا الخاصة بقاطنة ضفاف نهر النيل، الذين تميزوا بلطفهم ودهائهم وروح السخرية الحاضرة بينهم وتقديسهم لأُسرهم، لنا أن نعتقد بأنهم رسموا آلهتهم في صور شبيهة بصورهم هم.

وكان هؤلاء المصريون أيضًا يحبّون الحيوانات كثيرًا، حتى أن أغلب آلهتهم تتخذ كلّيًـا أو جُزئيًا أشكال حيوانات (هاثور في شكل بقرة، آمون في شكل حمل، أنوبيس في شكل ثعلب، توت في شكل طائر أبو منجل، حورس في شكل صقر، وغيرها). كما أنّ البيوت كانت تحتفي كذلك بالحيوانات الأليفة ذات الشعر، كالكلاب والقطط والقردة، أو ذات الريش، لا سيما الإوز التي كانت تُقدَّر تقديرًا جمًّا بسبب مواهبها في الحراسة. تبدو الحيوانات في الحكايات المصرية القديمة مُؤَنْسَنَةً إلى حدّ كبير، وهكذا، فهي لا تمُدّنا بكثير من التوضيحات حول رُؤية المصريين القدماء بشأن مملكة الحيوان. ومع ذلك، يجدر التنويه بأنّ الثعلب ذو المقام الحقير عندنا، يتحلّى عندهم بالحكمة والنُّبل والكرم، والإله أنوبيس الذي يتخذ شكل الثعلب من أهم الآلهة عندهم وأكثرها جودًا.

تُطلعنا القصص الأربعة الأخيرة عن رجال يَنْسِلون من ظروف اجتماعية مختلفة جِدًّا. وفضلًا عن الأُمراء، نَجِد شخصية رَجُلٍ من رجال البلاط الملكي الذي بعد أن تجرّع مرارة المِحَن تمكّن من العودة أخيرًا ليرفل في النِّعم. وهناك شخصية البَحّار البارع في تدبّر أموره وتسييرها تسييرًا حسنًا، والمُزارع الفقير الذي صبر فنال جزاء صبره خيرًا، بعد أن كان مُوشكًا على خسارة كلّ شيء. وقد انتهت هذه الحكايات بشكل عام نهايات سعيدة، مما يدعونا للاعتقاد بأنّها ستشكّل مبعث أمل في نفوس قارئيها.

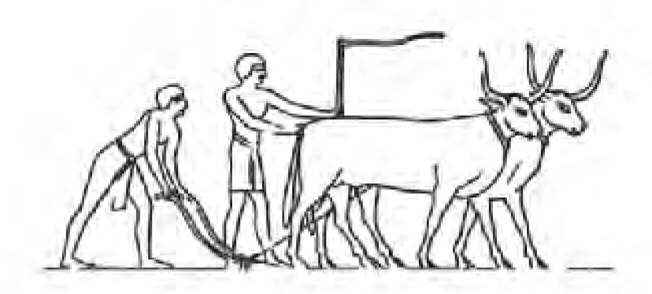
وبغضّ النظر عن مجرى الحكايات في حدّ ذاتها وتحوّلاتها المفاجئة وقفزاتها، حتى وإن كانت لا تخلو من الفائدة، فإنّ هذا الطبق الغنيّ من الأحداث والشخصيات ليُسلط الكثير من الضوء على المجتمع المصري وحياته اليومية في ذلك العصر.

ولعلّ هذا أكثر مظاهر هذه الحكايات إثارةً للاهتمام، فأبطالها شخصيات تدبّ فيها الحياة بشكل مذهل، وفي النهاية، هم أشخاص يضجّون بالعاطفة وقريبون من تفكيرنا وإحساسنا. فهُم ليسوا أبطالا خارقين، وعلى سبيل المثال، نجِد أنّ المُزارع يتصرّف بتحفّظ أكثر بعد أن تلقّى ضربةَ عصا

غير مستحقّة، كما نرى بأنّ سنوحي يفضّل النفاذ بجلده على مواجهة الخطر، وأمّا ستني، فرغم أنه أمير، إلا أنّه لا يُصوَّر في تلك الهالة البرّاقة التي تميّز الأمراء...

إن هؤلاء الرّجال، وهاته الآلهة الشبيهة بهم، لَيَبْدونَ مألوفين لدينا رغم القرون الثلاثين أو الأربعين الّتي تفصلنا عنهم.

قصّة الأخوَين



هذه أوّل حكاية من حكايات مصر القديمة، تُرجمت إلى الفرنسيّة (1852)، وقد نُقلت إلينا في ورقة بردي محفوظة في لندن، وهي وثيقة يعود تاريخ كتابتها إلى حوالي العام 1210 قبل ميلاد المسيح، أي بعد فترة وجيزة من نهاية الفترة الطّويلة لحكم رمسيس الثّاني. ولكنّ القصّة الّتي تُطلعنا الورقة عليها أُلِّفت في تاريخ أكثر قِدَمًا من هذا العصر، وقد نتجت عن مزاوجة قصّتين متمايزتين ببعض، وهو ما يفسّر الاختلاف الكبير بين جُزأي هذه القصّة، بحيث تبدو الشخصيّتان الرّئيسيّتان، أنوب وباتا، في البداية كمزارعَيْن بسيطَيْن، بينما يظهران بعد ذلك بمظهر نصف الآلهة وقد حازا قُدرات سحريّة واسعة.

1

كان يا مكان في سالف العصر والأوان، أخوان، اسم أكبرهما « أنوب »، أمّا الأصغر فـ « باتا »، وفي حين كان أنوب متزوّجًا، ارتضى باتا لنفسه العزوبيّة متعذّرًا بأنّ الوقت لم يزل مبكّرا للزواج. كان باتا شابًّا يافعًا فارع الطول قويّ البنية ذا جمال أخّاذ خلب به أفئدة أهل حيّه، ولا سيما الفتيات منهم.

أحبّ الأخوان بعضهما بعضًا حبًّا جمًّا، وسكن باتا في البيت ذاته مع أنوب وزوجته، وعاش ثلاثتهم حياة هانئة في مزرعتهم الصغيرة يقتاتون ممّا تُدرّه عليهم حقولهم.

كل صباح، ومع انبلاج الفجر، كان باتا يستيقظ، يدسّ قطعة خبز في حقيبته، يقبّل شقيقه، ثم يتخذ طريقه على طول ضفاف النهر إلى الحقول الممتدّة هناك في مكان ليس ببعيد. كانت أحبّ لحظة من لحظات اليوم إلى نفسه. مياه النيل تعكس شعاع الفجر الساطع من خلف أوراق البردي العالية، والعشب الرطب تحت الأقدام، وأسراب الطيور، بالكاد مستيقظة، وقد بدأت تتكدّس على أشجار النخيل وحول الأزهار. كان باتا يتوقّف على الدوام للحظات يراقب أحد الصيادين أو طيور أبي منجل وهي تطارد سمكةً

من الأسماك الصغيرة. وفي دربه، كان يُلقي التحية على الصيادين في قاربهم وهم ماضون، غير وَجِلين من التماسيح، صوب عرض النهر لنصب شباكهم.

تِلكم كانت حياة باتا، هادئةً ومتناغمة. كان يدفع بقراته أمامه يسوقها صوب أغنى المراعي، وحينما تجد البقرات مكانًا يطيب فيه المرعى، تُخاطبه قائلةً : « فلنتوقف مكاننا، العشب هنا طيّبٌ لذيذ ». ويمتثل باتا لرغبتها. ثم عند المغيب، كانت البقرات تُغدق عليه بكمية غزيرة من الحليب، كما كانت تلد له كل عام عجلًا موفور الصحة والعافية.

عند اقتراب المساء، كان باتا يحمل على أكتافه العريضة القِراب الملأى بالحليب الذي جناه، ويعود راضي النفس تغمره الفرحة إلى البيت الصغير ذي الجدران المطلية بالجير الأبيض حيث يحتفي به شقيقه وزوجته. كما لم يكن يفوته في كل مرّة أيضا جلب بعض الخُضار التي يقطفها من البستان، كالبصل و الخس والكرفس والحمص والخيار، وغيرها.

كان باتا يجلس على الشرفة وقد هبّت عليها نسمة خفيفة منعشة آتية من الشمال، ويروي ظمأه مفرِغًا في جوفه كأسا من الجعة الطازجة، ثم يتناول حساء العدس أو الفول مع

قليل من السمك المشوي وجبن مع الأعشاب، ثم يَمضي إلى الإسطبل، ويستلقي على سريره المصنوع من القصب المجفَّف، ويغطّ بجوار الحيوانات في النوم ملء جفونه حتى تهلّ تباشير صباح اليوم الموالي.

وهكذا سارت حياة باتا، فصلًا بعد فصل، على ضفاف نهر النيل، وكان يمكن لها أن تستمر على هذا المنوال حافلةً بالسنين والبنين حتى وفاته ؛ وعندئذ، ما كان لهذه الحكاية أن توجد. ولكنّ القدر كان يخفي لباتا مغامرات مذهلة. فهلمّوا لنرى كيف تغيرت الأمور في حياة باتا.

كل عام، عند وُشوك نهاية الربيع، كان « النيل » يغادر فِراشه، ويغمر بمياهه المثقلة بالطمي والطين الحقول المتاخمة لضفافه، ويقوم، في خلال ما يربو عن ثلاثة أشهر، بِرَيِّ تلك الحقول وتغذيتها، ثم يعود بحكمة ليخدق بين جنبات مجراه القديم ؛ ووقتئذ يحلّ أوان الحرث والبذر.

ذات يوم من أيام الربيع، قال أنوب لشقيقه الأصغر، بعد أن تفحّص حال حقوله :

— إنه أوان تحضير المحراث والبذور. غدا صباحًا سنوثق المحراث إلى بقرتين ونمضي لفلاحة الأرض.

مع حلول الفجر، انطلقا إلى ما عزما عليه، وقضيا الصبيحة بأسرها في حراثة الأرض. كان أحدهما يسير أمام المحراث ليسوق البقرات، فيما كان الآخر يمسك السّكّة بقبضة قويّة، ويشدّ عليها من أجل أن تُحدِث مسارات مستقيمة قَدْرَ الإمكان على الأرض. ثم، وبعد أخذ قسط يسير من الراحة، زرعا البذور التي أحضراها، من قمحٍ يُستخدَم في صناعة الخبز، وشعيرٍ يُعصر للحصول على الجِعة.

وفي اليومين التالي والذي يليه، كرّر الأخوان نفس العملية والتي كان أجدادهما قد دأبوا على القيام بها قبلهما. ولكن، في اليوم الرابع، حدث وأن نفدت منهما البذور.

قال أنوب لباتا :

— أسرع إلى البيت واجلب لنا ما نحتاجه من بذور.

وفي لمح البصر، ركض باتا صوب المزرعة، وألفى زوجة شقيقه جالسة في القاعة. كانت مُنشغلة في تسريح شعرها والتفرّس في صورتها المنعكسة على مرآتها البرونزية، ذلك لأنها كانت في غاية الجمال والأناقة. خاطبته بنبرة غنج :

— هل لي أن أتوقع ما سبب زيارتك المفاجئة ؟

أجابها باتا بصوت خافت :

— لقد نفدت منا البذور.

ثم في ثلاث قفزات، تسلق السُّلّم المؤدّي إلى العليّة، وأخذ ما يحتاج من بذور، ثم حملها على كاهله، ونزل إلى القاعة حيث كانت المرأة تنتظره. ولمّا رأت عضلاته المفتولة التي لم تنحن حتّى تحت وطأة هذه الأوزان الثقيلة التي يحملها، بدا لها أنّها تقف أمام إله شاب.

قالت له، وقد حوّل أجيج المشاعر صوتها إلى صوت أجش قليلًا :

— عليك أن تأخذ قسطًا من الراحة.

ولكنّ باتا التزم الصمت، فبادرته في إلحاح قائلةً :

— تعالى واستلقِ إلى جانبي في الغرفة لبعض الوقت !

وما إن سمع باتا قولها حتى اشتاط غضبًا، وزمجر :

— ألا تستحين ؟ كيف تجرئين على عرض مثل هذا الأمر عليّ أنا، شقيق زوجك ! اعلمي بأنه شقيقي الأكبر الذي طالما كان بمثابة الأم والأب لي ! وأنني، كنت أعتبرك، حتى الآن، أختي الكبرى !

لم تنبس المرأة ببنت شفة وهي ترى وجه باتا قد استحال أصفر شاحبًا من فرط الغضب. ثم استرسل باتا :

— كرّري هذا الذي قُلتِه توًّا، وسيعلم أخي بهذه الإهانة. ومن جهتي، سوف أمتنع عن قول أيّ شيء، أما أنت

فأنصحك بأن تلوذي بالصمت، ولا تدعي أي كلمة تُجاوز حنكك.

أومأت المرأة برأسها موافقةً إيّاه، وقد تشاطرتها مشاعر الخوف والارتباك. وقفل الشاب، الذي كان لا يزال يرتجف من وطأة الغضب، عائدا إلى الحقل يحمل أكياسه على كتفيه.

قضت زوجة أنوب وحيدةً في البيت وقتًا طويلًا تتقاذفها مشاعر الغمّ من أن تُطرد لتجد نفسها من غير مأوى، ومشاعر الخوف ممّا قد يحلّ بها لو وشى باتا بما حدث منها رغم الوعد الذي قطعه لها. وفي لحظة من اللحظات، قرّرت ألّا تظلّ خامدة، واتجهت صوب صندوقها الذي يحوي مستحضرات الزينة ومساحيق التلوين.

وبمهارة فائقة، رسمت على وجهها وكتفيْها وعنقها علامات توحي بأنها تعرضت للضرب. وحينما حل المساء، تغافلت عن إيقاد النار والمصباح الزيتي، واستلقت على سريرها وجعلت تئنّ كما لو أنّ فؤادها قد فُطر. وعند إيابه، وجد أنوب زوجته في هذه الحال، فسألها على الفور، والقلق يعتريه لرؤيتها في مثل هذه الكآبة :

— ما الذي حصل معك ؟

ولكن المرأة ودون أن تتلفّظ بأدنى كلمة، راحت تستمتع في مضاعفة أنينها.

ألحّ أنوب عليها قائلا :

— إني آمرك بالكلام، أخبريني من ذا الذي ضربك ؟

فردّت الزوجة :

— لم أكن أرغب في قول أيّ شيء حتى أجنّبك الألم، ولكن بما أنك تأمرني... إنّه أخوك، عندما عاد لأخذ البذور، وبعدما تفرّس فيّ من رأسي إلى قدمي، قال لي : « تعالي لتستلقي معي بعض الوقت في الغرفة ». فقلت له وأنا ثائرة من عرضه هذا، بأنك كنت دائما بمثابة والدٍ له، وبأنني أُعتبر في مقام شقيقته الكبرى. وعندئذ، حاول أن يجرّني بقوة إلى السرير، ولما هددته بالصراخ وجمع الجيران، راح يضربني لكي يُخرسني.

غرق أنوب في الصمت المُطبق، ذاهلًا من فرط المفاجأة والأسى. وأضافت الزوجة :

— لقد هدّدني بالموت إن أنا أخبرتك بما حصل، ولكنني لست أخشاه لأنني أوثر الموت على العار !

ظلّ أنوب من غير حِراك مدّةً طويلة، ثم هبّ الغضب في داخله كعاصفة هوجاء، وعزم على قتل أخيه. تناول حربته التي كان يستخدمها للدفاع عن مواشيه في مواجهة الحيوانات المفترسة، واتخذ له مكانًا خلف باب الإسطبل حيث كان باتا يعتني بالمواشي وسيخرج بعد حين.

ولكن إحدى الأبقار، وكانت أكبرها سنًّا، والتي اعتادت أن تسير في مقدمة القطيع، لمحت ساقَيْ أنوب الباديتان من تحت الباب. فقالت لباتا :

— إن أخاك مُستخْفٍ وراء الباب حاملًا حربته، وإني لأخشى على حياتك منه.

أدرك باتا بأن المرأة قد روت لزوجها ما حدث ولكن على طريقتها الخاصة. وعلى الرغم من أنه كان من القوّة ما يخوّله مواجهة أنوب وصرعه، إلا أنه لم يُرد أن يرفع يده في وجه أخيه. لذلك قرّر الفرار. وتسرّب من إحدى نوافذ الإسطبل ثم راح يركض وسط الحقول. وما إن لمحه أنوب حتى انطلق في عقبه ملوّحًا بحربته.

وطلب باتا العون من السماء، فلم يكن يريد مصارعة أخيه، ولم يكن يريد الموت أيضا. وقال :

— يا مولاي رع، يا من تعرف البريء من المذنب، إني أرجو نجدتك، وأتوسل إليك.

استجاب رع لدعواه، فجعل بين الأخوين سدًّا مائيًّا عظيمًا يعجّ بالتماسيح الضخمة. وهكذا بات مستحيلًا على أنوب أن يتقدم أكثر، فتوقف على ضفة هذا السد. وكذلك فعل أخوه على الضفة المُقابلة. ووقتئذ أسدل الظلام أجنحته على المكان.

بحلول الصباح، كانت حدّة الغضب في نفس أنوب قد خفّت قليلًا، واستمع إلى باتا من الجهة الأخرى للسّد وهو يقصّ عليه ما حدث حقيقةً حينما عاد إلى المزرعة. وأدرك أنوبِ صدق أخيه، وراح يفكّر، وقلبه يعتصر الألم، بأن خيانة زوجتك كادت أن تقوده إلى قتل شقيقه الأصغر الذي يحبه. ثم قال :

— سامحني باتا ! ولتَعُد معي إلى البيت وسنعيش في رغد وسعادة كما في السابق.

غير أن باتا كان له قرار آخر، فأجاب :

— عد لوحدك. واعتنِ بالماشية فيما هو آتٍ من الأيام. أمّا أنا، فسأمضي إلى وادي الأرز[1] القريب من شاطئ البحر. وعندما أصل هناك، سأضع قلبي فوق أعلى شجرة من أشجار الأرز. وما أريد منك إلّا أن تذكرني. وإذا ما حدث يومًا وأن فار قدح الجعة بين يديك وأزبد، فاعلم بأنني في حاجةٍ إلى عونك، وبأنّ شجرة الأرز قد قُطعت فأضحى قلبي يُحتضر من غير وريدٍ يُغَذّيه بالحياة. وعليك إذّاك أن تُسارع فورًا للبحث عن قلبي ووضعه في الماء، فهذا هو السبيل لكي تُعاد إليه الحياة.

---

1. يقصد هنا بلاد فينيقيا، أو ما يسمى حاليا بلبنان، والتي كانت حال كتابة هذه القصة تحت الحكم المصري.

أحسّ أنوب وهو يصغي إلى شقيقه بعَبَرات ثقيلة تشقّ طريقها عبر وجنتيه، وتوسل إليه مرة أخرى بأن يرجع معه، لكن باتا قابله بالرفض قبل أن يضيف :

— لا تنسَ أيّ كلمة ممّا قلته لك، وإذا ما دعت الحاجة، سارع للبحث عن قلبي، ولا تيأس حتى تجده ولو تطلّب منك البحث سبع سنوات طوال.

وعندئذ، اتّخذ باتا سبيله نحو وادي الأرز، في حين قفل أنوب راجعًا إلى بيته غارقًا في حزنه. وحال وصوله هناك، عفّر رأسه في التراب حدادًا على فقدان أخيه الأصغر. ثم قتل زوجته وألقى بجثتها طعامًا تنهشه الكلاب، وكان هذا هو العُرف المُتّبع مع المرأة الخائنة في ذلك العصر. ووحيدًا في مسكنه، لم يكن في وسع أنوب إلا الاستسلام لأشجانه.

2

أقام باتا في وادي الأرز، ونفّذ ما عزم عليه واضعًا قلبه على قمة الشجرة. كان يقتات من لحوم الحيوانات البرية التي كان يصطادها، ويشرب من مياه المنابع، كما كان يُكرّس جزءا من وقته، في أول فترة مكوثه هناك، لبناء منزل يأوي إليه. وعندما فرغ من البناء، بات قادرًا على أن ينسلّ في الليل داخل فراشه المُبطّن بالحشائش الجافة، وينام.

وعلى هذا الوضع دارت أيام باتا في الوادي، إلى غاية ذلك اليوم الذي رأى الإله « رع » فيه حالةَ الوحدة المقيتة التي يعيش فيها باتا، فاستدعى إله الخلق « خنوم »، وقال له :

— خنوم، إنني أرثي لحال باتا، فاخلق له زوجةً يسكن إليها، فلا يظلّ وحيدًا !

وفي الحال، نفّذ خنوم الأمر وصوّر للشاب عروسًا تليق به. لقد كانت فتاةً ذات جمال أخّاذ لم يُرَ مثله في البلاد قَطّ.

أحبَ باتا الفتاة بجنون ومن أول نظر، وضاعف مجهوده في الصيد ليجلب لها على الدوام طرائد ذات لحم طازج شهي. وكانت تنتظره أمام عتبة الباب عند أوبته في المساء حاملًا بعض الزهور والفواكه البرية، وتستقبله بكلمات حلوة طيّبة. ثم يلجآن للمنزل ويمضيان ليلةً بديعة.

مضت الأيام والعروسان ينعمان في السكينة والهدوء، وسرعان ما وثق باتا في زوجته ثقة عمياء، ما حدا به إلى أن يفشي لها سر قلبه المعلّق في أعلى شجرة الأرز.

ذات يوم، لمح إله البحر « يام » الفتاة الحسناء وهي تتجوّل على الشاطئ. لقد كانت من الجمال ما أغراه للاستحواذ عليها ؛ فضاعف من حجم أمواجه وأرسلها صوب البرّ لاختطافها.

وما إن رأت المرأة الأمواج دانيةً منها حتى ركضت نحو بيتها للاحتماء داخله، وعندها صرخ الإله في شجرة الأرز :

— أسرعي، أمسكي بالفتاة.

غير أن الشجرة لم تتمكن منها، وبالكاد أفلحت في أخذ خصلة من خصال شعرها حيث سقطت في البحر وسبحت بعيدا في عرضه.

طفت هذه الخصلة على سطح البحر وعبرت سواحل بلاد الأرز وصولاً إلى مصر، وهناك ألقت بها الأمواج على الشاطئ حيث كانت غاسلات ثياب فرعون يجفِّفن ما تم غسله من ملابس، وغمر أريجٌ فريدٌ هذه الملابس، وجرى البحث في كل أرجاء القصر عن المصدر المحتمل لمثل هذه الرائحة العطرة. وفي نهاية المطاف، عثر رئيس الغاسلات على الخصلة مُندسّة بين الرمال، وانطلق بها إلى سيّده.

استفتى فرعون الحكماء والعلماء في أمر هذه الخصلة التي خلب عبقها فؤاده، وكان ردّهم واحدًا :

— هذه خصلة من خصال شعر ابنة الإله رع.

وعلى الفور، أرسل فرعون مبعوثين في كل البلدان بحثًا عن صاحبة الخصلة وإحضارها لتَمْثُل بين يديه.

وعاد الجميع بخفَّي حنين يخبرون الفرعون عن عدم عثورهم على شيء، ما عدا أولئك المبعوثين إلى وادي الأرز، فلم

يرجع أحدٌ منهم ؛ ذلك أن باتا كان قد قتلهم بعدما أدرك نواياهم في خطف زوجته العزيزة.

وعندئذ، خمّن فرعون في أنّ وادي الأرز هو المكان الذي يجب أن يُرسل جيشه إليه، وسيّر إلى هناك أعدادًا غفيرة من الجنود وعربات قتال تجرّها الخيول، وكذا خادمات مُحمّلات بالجواهر والحلي والفساتين، فلم يَقْوَ باتا ذو الحيلة والقوّة القليلتين على فعل شيء أمام هذه البعثة الجديدة. وترك زوجته تذهب مع المرسلين حاملين إياها إلى مصر.

أُعجب فرعون بالمرأة أيّما إعجاب، واصطفاها لنفسه زوجةً مفضلةً، وأغدق عليها بالاهتمام والهدايا، ونظّم على شرفها الحفلات الباذخة، وأبهجها بالموسيقى والأغاني والمتع. ومقارنةً مع الحياة الموحشة التي قضتها إلى جانب باتا، أغرت هذه الحياةُ الجديدة الفتاةَ الحسناء، وقرّرت أن تتخلص من زوجها السابق كي ترفل في نعيم هذه الحياة من غير منغّص يُفسدها عليها، فقالت لفرعون :

— لي رجاء عندك، هل لك أن تُرسل بعض الحطابين لقطع شجرة الأرز الضخمة النامية في الوادي الذي كنت أقطن فيه سابقا.

وما كان في وسع فرعون أن يرفض لها طلبًا، فأرسل رجاله الذين سرعان ما أعملوا مناشيرهم في أشجار الوادي.

وهَوَت الشجرة على الأرض مُصدرةً صريفًا هائلًا. وحال ما وقع القلب من أعلى الشجرة، خرّ باتا صريعًا.

عاد أنوب من الحقل في أمسية ذلك اليوم الكئيب، وملأ قدحًا من الجعة كي يُطفئ ظمأه، فطفقت الجعة تفور وتزبد من على فوهة الكأس ؛ وعرف أنوب بأنها الإشارة التي حدّثه شقيقه عنها. ودون طويل انتظار، انتعل أنوب حذاءه، ولبس معطفه وحمل عصاه وانطلق. يومًا بعد يوم، شقّ طريقه صوب وادي الأرز، وحالَ وصولِه وجد أخاه الأصغر ممدّدًا على سريره ميتًا.

أخذ أنوب يفتش عن قلب باتا. ومنذ التباشير الأولى للفجر حتّى مغيب الشفق، كان يبحث ويذرع الأرض شبرا شبرا، يُنقّب بين الشُجيرات، ويُقلب كل حصاة وكل حبة رمل مُتحقّقًا من أنها لا تُخفي قلبِ أخيه تحتها. واستغرق في البحث ثلاث سنين... سنواتٌ ثلاثٌ طويلةٌ من غير أن يعثر على شيء. وبدأ أمله يتلاشى شيئا فشيئا. وخلال بعض الأمسيات، راح يفكّر في أنّ عودته إلى مصر باتت وشيكة. ولكنّه، استأنف بحثه في الصباح الموالي، واستمر في ذلك إلى أن عثر يومًا على ثمرة صغيرة تُشبه في شكلها القلب.

وضع أنوب الثمرة في كوب من الماء العذب وشرعت الرطوبة تتسرّب داخل القلب الجاف تدريجيا. وفجأة، فتح

باتا عينيه، فسقاه أنوب كوب الماء وانسلّ القلب إلى مكانه بين أضلع باتا، فأضحى في وسعه النهوض واحتضان أخيه الأكبر كما في السابق.

أمضى الأخوان الليل كله في الحديث عن ذكريات الماضي والفرحة تغمرهما لالتئام شملهما مجدّدًا. وبعد ذلك راح باتا يشرح لشقيقه الأكبر الخطّة التي رسمها من أجل معاقبة زوجته السابقة، وما إن طلع الصبح حتى شرعا في تنفيذها. بدايةً، تحوّل باتا إلى ثور مُرقط خلّاب، شبيه بتلك الثيران التي تخدم حقول الإله على الأرض، ثم حمَل أخاه على ظهره، واتجه ناحية قصر الفرعون.

قوبِل الأخوان بترحابٍ وحفاوةٍ بالِغَيْن، وأغدق فرعون الأموال والثروات على أنوبٍ شكرًا له على إحضاره هذا الحيوان المدهش، في حين وُجّهت الأنظار والعناية كلها صوب الثور باتا، وأوتيَ الخدمَ والأراضي والقصورَ، وكان يُخدَم كما لو أنّه الملِك ذاته، ذلك لأنه كان مشمولًا بالرعاية الملكية.

بَيْد أنّ باتا لم ينس مشاريعه الثأرية، وولج إلى الجناح الخاص بالنسوة في القصر الملكي مستفيدًا من قدرته على التنقل أينما شاء وكيفما شاء. وهناك، ألفى رفيقته السابقة، وحين اقترابه منها بادرها قائلا :

— رغمًا عنك، لا أزال حيًّا أُرزق !

انتفضت المرأة، وأخذت تحدّق من حولها فلم ترَ أحدًا غير الثور، فسألت :

— مَن أنت ؟

— أنا باتا، زوجك الذي أخفقتِ في تدميره !

لاذت المرأة بالفرار مرعوبةً والتجأت إلى جنب فرعون، فسألها هذا الأخير عندما لاحظ ارتباكها :

— ما بك ؟

أطرقت المرأة رأسها مُرسلةً زفرةً، زادتها تألّقًا وجَمالًا. قالت في نبرة خافتة حزينة :

— لم يحدث شيء، أو على الأقل، لم يحدث شيء له علاقة بسلطتك.

انتفض الفرعون عند سماع قولها :

— ماذا ؟ ما مِن شيء لا يتعلّق بسلطتي.

دنت منه في دلال، وقالت :

— إذا طلبت منك شيئا، هل تنفذه من أجلي ؟ أتعدني ؟

ووعدها فرعون بذلك، إذ لم يكن قادرًا على مقاومة تأثير تلك الابتسامة المشرقة التي رسمتها الحسناء على شفتيها. ثم قالت :

— أريد أن آكل من كبد هذا الثور الذي جاءنا إلى القصر. إن هذا أجلّ ما أرغب فيه، ولقد وعدتني.

وشعر الفرعون بالألم لأنه أحبّ الثور حبًّا كبيرًا، ولكنه قطع وعدًا يجب الوفاء به، فأمر جزّاري القصر أن يذبحوا باتا.

وفي الغد، نُفّذ الأمر وجُزّ عنق باتا، ولكنّ قطرتي دم تدفّقتا من الجرح ووقعتا على جانبي بوابة القصر الملكي، وما إن لامستا الأرض حتى تحوّلتا إلى شُجَيْرتين جعلتا تنموان بسرعة إلى درجة أنهما وبحلول اليوم الموالي كانتا قد صارتا شجرتين باهيتين كبيرتين تغمران بوابة القصر بظلّهما.

وما إن أُعلم الفرعون بشأن هذه المعجزة، حتى اشتعل فضوله لرؤية الشجرتين ووجدهما رائعتي الجمال، وقرر أن يُحضر كرسي عرشه المصنوع بأكمله من الذهب وحجر اللازورد، وجلس تحت الظل المنعش لإحدى الشجرتين.

ووقتئذ فكّر في أنّ زوجته المفضلة ستُحبّ هي أيضا الاستمتاع بالجو العطِر الذي توفره هاتان الشجرتان العجيبتان، فأرسل في طلبها وأجلسها على كرسي فخم قرب جذع الشجرة الثانية.

وما إن همّت الزوجة الشابة أن تجلس حتى سمعت صوتًا يخاطبها :

– للكرّة الثانية، تحاولين قتلي، ولكن اعلمي بأني ما أزال على قيد الحياة.

وسرعان ما أدركت المرأة بأنّ باتا متجسد في هاتين الشجرتين، وهو ما يفسّر نموّهما السريع. وعزمت على تكرار ما فعلته مع شجرة الأرز والثور، ولم تجد أدنى صعوبة في إقناع الفرعون بقطع الشجرتين مستفيدةً من سحرها وإغراءها الهائلين.

وبعد قطعهما، أمرت بقصّ الجذوع إلى ألواح لصناعة الأثاث. ولكن، وحينما كان النّجّارون يشتغلون في نشر الخشب، طارت شظية ودلفت إلى فم المرأة فابتلعتها، وعلى الفور، تشكّل جنين في أحشائها.

وبعد انقضاء فترة الحمل المعتادة، وضعت المرأة طفلًا بديع الجمال، لم يكن إلا باتا ذاته. وبثّ مجيء الطفل السعادة في قلب الفرعون الذي كان يعتقده من صلبه، وعمّ الفرح البلاد برمّتها، وأُقيمت الاحتفالات بهذه المناسبة لعدة أيام بلياليها.

سرعان ما تعلّق الملك بالطفل الصغير، وأولاه أفضل العناية والاهتمام. وحينما اشتد عوده، وفّر له أحسن المربّين، ثم عيّنه وريثا لعرشه، وأشركه في الحكم.

ومرت سنوات، ثم غادر فرعون الأرض ليلتحق بوالده إله الشمس في حياة الخلود، واستفرد باتا بالحكم، فحان أوان

الأخذ بالثأر. جمع باتا كل من في المملكة من نبلاء وحكماء وقصّ عليهم قصّة زوجته السابقة وكيف تصرّفت معه؛ وطفقوا يرتجفون وهم يصغون إليه من هول ما حدث، وأجمعوا رأيهم على إدانة المرأة، ثم قُتلت عقابًا لها على جرائمها.

وبعد ذلك، أحضر باتا إليه أخاه أنوب وأشركه في الحكم مُعيّناً إيّاه وليًّا للعهد. ودامت فترة الحكم السعيد لباتا ثلاثين عامًا، ثم بعد أن صعد إلى السماء، خلفه أنوب في الحُكم[1].

1. إن هذه النهاية مثيرة للاستغراب إذا ما اعتبرنا العمر المحتمل لأنوب وقتذاك. ولكن رغم أننا لا يجب أن ننتظر الكثير من الواقعية في الأساطير، من المفيد أن نذكر بأن اسم « أنوب » يكتب أيضا « أنوبيس » (نوع من الشجر الذي يعمّر كثيرا) ما يفسر بلا شك العمر الطويل لهذه الشخصية.

رع، بدء الخلق والصّعود إلى السّماء



على جدران معابد وادي الملوك بالقرب من طيبة، يُمكننا أن نقرأ نصّ الحكاية الموالية الّذي كُتب بأكمله تمجيدًا لـ « رَعْ ». ولكنّ الأساطير المصريّة القديمة تُطلعنا على روايات أخرى فيما يخصّ نشأة الخلق، فَقَدْ كان لكلّ عاصمة إلَهُها المُفضّل الّذي تَنسب إليه الفضل في خلقَ العالَم.

في غابر الأزمان، انبثق « رَعْ » باستخدام قُدراته الذاتية من البحر السحيق الذي كان يغمر عالَم الفوضى الأصلي.

كان هذا العالم الفوضوي نطاقًا مديدًا غير متناهي، لا شكل له ولا حياة فيه، يغرق في الظلام الدامس، فأضاءه رع بِنور شمسه، وأسند له حدودًا، ثم أبرزه جزئيًّا كي تظهر اليابسة للعيان. وأخذت الأرض شكل مساحة شاسعة منبسطة يجوبها رع كل يوم من الشرق إلى الغرب.

أحيى رع بكلمةٍ منه الآلهة الآخرين كلّهم والبشر والنباتات والحيوانات، الكبيرة منها والصغيرة. وأعمروا جميعًا هذه الأرض التي أخرجها من قاع المحيط البدئي، ثم خلق أنهارًا تنساب إلى البحر، وتلالًا ناعمة وجبالًا شاهقة أصبغت على الطبيعة تنوّعًا. وسارت الحياة بتوافق وانسجام، بحيث دام هذا ردحًا طويلًا.

ولكنّ رغبة التمرد اشتعلت في داخل الإنسان. وعلى الرغم من ضعفه، عزم على مُنازعة الآلهة سُلطتهم. ولم يلبث رع أن علم بالأمر، وقد كان إذّاك شيخًا وقورًا ؛ فالآلهة أيضًا يصيبها الهرم. كانت عظامه من الفضّة النقيّة المُتلألئة، لحم جسمه من الذهب الخالص، وشعره من حجر اللازورد الأزرق اللّامُتناهي المُمتدّ فوق الأرض.

وبسبب جحود مخلوقاته، انتاب الغضبُ الشديدُ إله الشمس ؛ وعندئذ رغب في القضاء عليهم عن بكرة أبيهم. ولكنه كان

بالغ الحِلم والحكمة، فقرّر التشاور مع بقية الآلهة قبل اتخاذ مثل هذا القرار المصيري. وقام باستدعائهم، وطلب إليهم الحضور في سرية تامة. إذ قال :

— لا أرغب في أن يعلم البشر بما أحضّره لهم، فقد يخافون ويفرّون للنجاة من غضبي !

اجتمع الآلهة في كتمان تام عند الإله رع. وقد حضر الإله « نو »، إله المحيط البدئي، وهو أكبر الآلهة سنًّا، ناهيك عن العديد من أبنائه والآلهة الآخرين الذين عاشوا في تلك الأزمان الغابرة.

قال رع :

— اعلموا بأن البشر الذين خلقتهم بيديّ قد أضحوا جاحدين وأشرار. إنهم يحرّضون على التآمر علينا، نحن الآلهة، لأنهم يريدون الاستيلاء على سلطتنا.

فأجاب « نو » مخاطبًا رع :

— لا تخشَ شيئًا على عرشك يا رع ! إنه عرشٌ متينٌ ثابت على قوائمه، وليس في وسع البشر فعل شيء لإسقاطه. ولكن، عليك بمعاقبتهم على سوء صنيعهم، أرسل من يحمل غضبك ويُهلك هؤلاء المتمردين !

وأمّن بقية الآلهة على هذا الكلام، فاغتبط رع لمّا لاحظ أن الآلهة جميعهم قد صفّوا في جانب رأيه. وأرسل الإلهة

« هاثور » لتُعاقب البشر. طاردت « هاثور »، المُتعطشة للقتل، البشرَ حتّى بلغت فيافي الصحراء، وفي هذا المكان المحفوف بكافة أنواع المخاطر، أبادت القسم الأكبر منهم.

وحينما خيّم المساء، عادت هاثور تغمرها السعادة إلى أبيها لتخبره عمّا أفضت إليه مُهمتها. وقالت :

— يا مولاي رع، لقد هلك القسم الأكبر من البشرية، وضحّيت بهم قربانًا لرغبتك في معاقبتهم. أمّا أولئك الباقون على قيد الحياة، فلا تبتئس بشأنهم ؛ سأنطلق غدًا مع بزوغ الفجر في ملاحقتهم مجدّدًا، وسأقضي عليهم جميعًا كالآخرين.

لم يشعر رع بالرضا ممّا يسمع. فقد ساءه، وهو الإله اللطيف، أن يرى البشر يؤولون إلى هذا المصير الكئيب. وندم على الأوامر التي أسداها، ولكن ليس في استطاعته أن يطلب من الإلهة الكفّ عن تنفيذها كاملةً. ولو يفعل ذلك، فستتأثر سلطته على بقية الآلهة وتنقص كثيرًا. وما كان عليه إذن إلّا أن يُهنئ هاثور على قيامها بمهمتها على أكمل وجه. وما إن غادرت الإلهة المُرعِبة المكان حتى شرع رع، تحت جنح الظلام، في تنفيذ حيلته من أجل إنقاذ بقية البشر.

استدعى رع أكثر مبعوثيه سرعةً وأرسلهم إلى صعيد مصر كي يجلبوا له كمية كبيرة من الصّباغ الأحمر القاني.

وفي هذه الأثناء، انهمكت كل خادماته في العمل، فكنّ يأخذن الشعير ويهرسنه بين الصخور ثم يعصرن الجعة حيث يضعن المادة الملوِّنة ؛ وهكذا مُلئَ من هذه الجعّة ذات اللون الأحمر الدموي سبعة ألاف جرّة.

وفي آخر النهار، أراق رع الجعة عبر الحقول المتاخمة للأماكن التي ستقضي فيها هاثور على ما تبقى من البشر. بحيث غُمرت الأرض بالسائل الدموي الذي بلغ ارتفاعه الثلاثة أذرع.

وصلت الإلهة إلى المكان، ورأت السائل القُرمزي فخالته دمًا، وجعلت تشرب وتشرب حتى لعبت الجعة برأسها. ولمّا فرغت من شرب كل السّائل كانت قد بلغت حدّ الثمالة ولم تعد قادرة على رؤية البشر، فغادرت دون أن تمسّهم بأذى ؛ وهكذا أنقذ رع، بسماحة نفسه، البشرية.

ولكن، ونتيجة لهذه الحادثة المؤسفة، تولّد لدى رع إحساس رهيب بالاشمئزاز مسّه في صميم فؤاده، فجمع نظراءه الآلهة مرة أخرى، وأعلن لهم قائلًا :

— ما عُدت أطيق العيش بجوار البشر. لقد عَدَلت عن إبادتهم رأفةً بهم، ولكنّ مصيرهم لم يعد يهمّني. سأبتعد عن الأرض، واعتبارًا من الآن سأسهر على سلامة العالَم وسأبثّ إليه النور من مقامي في السماء.

ثمّ توجّه إلى الإلهة « نوت »، وهي إحدى بناته أيضًا، وقال :

— هل لي أن أمتطي ظهرك من فضلك ؟

في البداية، لم تعرف الإلهة ماذا تفعل كي تضع والدها على متن ظهرها، ثم اهتدت إلى فكرة أن تتحول إلى بقرة بديعة ؛ وهكذا بات سهلًا على رع أن يركب ظهر ابنته.

— والآن يا بُنَيَّتي العزيزة أبعديني عن هذه الأرض التي لم أعد أطيق الإقامة بها.

ووقتئذ، مدّت « نوت » قوائمها وأطالتها إطالةً مُذهلة، وارتفع ظهرها حيث كان يجلس رع ببطء حتى بلغ عنان السماء، غير أن أرجلها التي صارت طويلة جِدًّا أخذت في الاهتزاز، كما بدأ ظهرها الذي أضحى مُمدّدًا جِدًّا في الانثناء ناحية الأرض ؛ فنادى رع أربعة من الجنّ الأشدّاء لمساعدته، وتمركز كل واحد منهم أمام رِجل من أرجل البقرة لتوطيدها، ثم طلب من ابنه « شو »، إله الهواء، أن يتموقع تحت بطن أخته وإسنادها بذراعيه القويّتين.

وأجرى رع على ظهر « نوت » نهرًا غزيرًا يشبه كثيرًا نهر النيل على الأرض، فيما عدا أنّ نهر السماء يجري من الشرق إلى الغرب. وراح يجوب النهر يوميًّا في قاربه المقدّس منذ الفجر وحتى الغروب دون أن يصيبه نَصبٌ أو تعب.

ثم خلق رع في العالم السفلي نهرًا ثالثًا شبيهًا جِدًّا بالنهر الذي في السماء، بَيْدَ أنّه يجري في عكس اتّجاه الأول كي يعود الإله إلى الشرق أثناء الليل بينما الناس نِيام.

ومُذّاك، أصبحت أبواب الشرق تفتح مصاريعها مع تباشير الصباح لتسمح بانتقال الإله من قارب إلى آخر، ومن ظلمة الليل إلى نور النهار. وبعدها، يستأنف رع مشواره الفلكي سعيًا بين الأفقَيْن، بينما تسبّح المخلوقات له مُبتهجةً من عودته.

كان رع راضيًا بهذه الحال تمام الرضا، لولا مُشكلة الليل. لقد كانت الأفعال السيّئة لا تقع إلا في العتمة، وفي جنح الظلام أيضًا كان الإنسان يدبّر وينفّذ مؤامراته ضد الآلهة. وبعد أن فكّر ودبّر، اتخذ رع قراره، فاستدعى الإله « تحوت » وقال له :

— الآن، وبعد أن غادرتُ الأرض، أريدك أن تحرسها بدلًا عني. ستستقر أنت أيضًا في السماء، وتضيء الليل بنورك الأبيض كي تمنع الأشرار من إتمام جرائمهم المُشينة والإفلات من العقاب.

وهكذا، صار « ثوت » إله القمر، بديل الشمس، الذي يُخفف سواد الليل الحالك. ثم استلم مهامه في السماء بصحبة الآلاف من النجوم التي تُضيء في بطن نوت.

كَيْدُ إزيس



على متن ورقة بردي يعود تاريخها إلى منتصف القرن الثّالث عشر قبل ميلاد المسيح، وصل إلينا نصّ هذه الأسطورة الّتي تجمع بين العجوز رع والإلهة إيزيس، ولكنّ شخصيّة إيزيس هنا تختلف تمامًا عن إزيس المُحبّة والمُخلصة الّتي جاءت في أسطورة أوزيريس. ولكن هذا لا يبعث على الدّهشة كثيرًا، خاصة إذا علمنا أنّ نظرة المصريين لآلهتهم كانت تختلف وتتنوّع تبعًا لتنوّع الأمكنة والأزمنة. وهكذا، نجد أن دور الخالق والإله الأعلى الذي أُسند إلى رع في بعض العواصم الدينيّة، قد مُنح إلى

« توم » أو « آمون » في عواصم أخرى. في هذه
الحكاية تظهر إيزيس في صورة داهيةٍ حقيقية؛
فهل يُعقل أن تكون هذه مجرد نزوة شباب؟

في غابر الزمن، كان رع لا يزال يُقيم على الأرض، وكان ضمن حاشيته المُقرَّبة إلهة شابة، هي حفيدةٌ من حفيداته تُدعى إيزيس. كانت إيزيس، فضلًا عن رقّتها وجمالها، حادّة الذكاء وتمتلك موهبة مُذهلة في ممارسة السِّحر. وقد تزوجت من الإله أوزيرس الذي كان أخاها في الوقت ذاته، وهو عُرفٌ دأب الآلهة على اتّباعه إبّان هذه الأزمنة الضاربة في القِدم.

وبفضل قُدراتها في ممارسة السّحر، تمكنت إيزيس من فرض سطوتها على بعض من مخلوقات جدّها إله الشمس. ولكن، لم يكن الشباب اليافعون من بشر وآلهة يأخذونها على محمل الجِدّ، ونادرًا ما يلجؤون إليها لفكّ سحرٍ أو إشفاء مريض. وفي الواقع، لم تكن ذات شأن بينهم. وبما أنها شديدة الطموح، قررت أن تفرض تأثيرها على رع ذاته. وكان هذا السبيل المأمول لتعزيز قُدرات فتنتها وسحرها، وإخضاع كل مخلوقات إله الشمس دون استثناء.

كان من عادة رع العظيم أن يزور بلاد مصر يوميًا، ويُسبغ على سكانها حمايته وفضله. وشرعت إيزيس في مخالطة أفراد حاشيته، مُتحيّنة أيّ فرصة لتحقيق غرضها. كان رع

في هذا الوقت قد طعن في الكِبَر، وذات مرّة، سال بعض اللعاب من شفاهه وسقط على الأرض ؛ وسرعان ما أدركت إيزيس ما يمكنها فعله.

وعلى عَجل، التقطت إيزيس اللعاب الذي يحمل، ككل شيء يخرج من فم رع، جزءًا من قدرته في الخلق. ثم أخذت الطّين المُبلّل بقطرات اللعاب، وشكّلت بيديها الخبيرتين في السحر ثعبانًا بطول ذراع، وبعدها سلكت طريقًا مختصَرًا ووضعت الثعبان في مفترق طرق اعتاد رع المرور عبره خلال كل زيارة من زياراته.

وبالفعل، لم يلبث الإله طويلًا حتى وصل إلى ذلك المكان، ولم يتمكّن من رؤية الحيّة التي لسعته في قدمه ثم انسّلت سريعًا داخل إحدى الحفر واختبأت. وتسرّب السمّ إلى ركبة الإله ثم إلى كافة جسده، مما جعله يعاني معاناة شديدة.

عاد رع إلى قصره عليل الجسد، وراح يصرخ من فرط الألم صرخات بثّت الرعب في كل من حوله. وسأله الآلهة الآخرون وقد تحلّقوا حول وسادته :

— ما الذي أصابك ؟ أخبرنا !

كانت شفتا رع ترتجفان ارتجافًا شديدًا تحت وطأة السمّ القوي، حتى أنه لم يكن يقوى على التلفظ ببنت شفة.

وعلى الرغم من ذلك أفلح في استجماع كل قواه، وبعد جهد جهيد قال في لعثمة :

— لقد لسعني شيء ما، ولكني غير قادر على تحديد ماهيته، ذلك لأنه ليس من خلقي. لست أنا من قدّر وجوده، ولست أنا من صوّره بكلمتي ويدي.

ثم ران عليه الصمت للحظات، فقد قطع الألم أنفاسه. وبعدها أردف مُستغلًّا سُكون الألم لفترة وجيزة :

— إنّ الألم الذي يعصف بي أقسى من النار والماء البارد معًا. إنني أحترق وأرتعد في الوقت ذاته ! فمَن منكم يا أحبتي الصغار يعرف الوصفات التي من شأنها أن تشفي هذه الأعراض، وأتخلص بسرعة من هذا العذاب الأليم.

حينها، اقتربت إيزيس من العجوز، وكانت أكثرهم خبرة في فن الطب، وقالت له في نبرةٍ غايةٍ في البراءة وهي تتظاهر بجهلها عن سبب الضرر الذي ألمّ به :

— أبتِ العظيم، هل حدث وأن شبّ خلافٌ بينك وبين أحد من أبنائك، أو أحد الكائنات التي خلقتها في سالف الزمان ؟ إن كان قد حدث هذا، فلدَيَّ صيغةٌ سحريةٌ ستنفيه إلى الأبد خارج المجال المُبارك الذي تصل إليه أشعتك.

لم يساور رع أدنى شك في نوايا إيزيس، وحدّثها عمّا حصل له عند مفترق الطُّرق. أمّا إيزيس فقد كتمت سرورها لنجاح مناورتها، ووضعت على وجهها قناع المهمومة لحال إله الشمس، وقالت :

— لديّ القدرة على إبقائك حيًّا يا أبتِ المقدَّس. ولفعل ذلك، يتعيّن عليّ أن أذكر اسمك ضمن صيغة سحرية أتلفظ بها، إنها السبيل الوحيد لشفائك.

وسرعان ما راح رع، وقد بدأت تنتابه بعض الشكوك، في تلاوة كل الأسماء التي أطلقها البشر عليه لتمجيده :

— اسمي هو : خالق السماء والأرض ! بارئ كل ما في السماء والأرض ! مُجري الماء ! باعث النور ! مُسدل الليل !من أرسى تعاقب الأيام والشهور !...

وتلا كل الأسماء المماثلة لهذه. أصغت إزيس في صبر لهذه الأسماء حتى النهاية، وجعلت تردّدها تباعًا، وتنسّقها في شكل تعويذة سحرية، ولكن ذلك لم يفد في تسكين آلام الإله العجوز.

وعندئذ، قالت إزيس لرع :

— يا أبتِ ومولاي، إنك لم تخبرني باسمك الحقيقي، ذاك الاسم المحفور في أعماق ذاتك.

هذا ما كانت الماكرة تصبو إليه منذ البداية ؛ لأنّ معرفتها بالاسم السري لرع سيُكسبها نفوذًا كبيرًا على الإله الخالق، وفي الوقت عينه تحوز الحُكم والسلطان على كل ما خلق من بشر وأشياء، وكانت هذه رغبتها.

التزم رع الصمت، فقد كان يعلم بأنّ إفشاءه لاسمه الحقيقي سيجعله خاضعًا لسُلطة الإلهة، وهو ما لا يريده أن يحدث. ولكنّ الألم استفحل عليه، وبدأ يئن أنينًا شديدًا.

ألحّت إزيس عليه قائلةً :

— يا والدي الوقور، لا تكن معانِدًا ! من دون اسمك الحقيقي، لا أستطيع فِعل شيء لأجلك. وفي المقابل، إذا ما أخبرتني به فإنني سأُخرج السم من جسمك، وستنتهي معاناتك.

أحس رع بعدم قدرته على مقاومة الألم فترة أطول. تطلّع إلى ملامح حفيدته الوديعة. بدت بأنها ليست مؤذية وفكّر في أنّ إخبارها بالسر لن ينطوي على مخاطرة كبيرة. ثم قال لها :

— اقتربي مني.

وفي همهمة، أطلعها على اسمه الحقيقي، وعندئذ تلفظت إزيس بالوصفة السحرية :

— اخرج يا أيها السم من الإله وانْسَكِب على الأرض فتمتصك! باسمك الحقيقي يا رع، أَطرد السم من جسدك ! ولتحيا من جديد أيها الوقور !

وفي الحال شعر رع بتحسّن كبير، وكفّ جسده عن الارتعاش والتعرّق في آن معًا، وعادت العافية إلى أعضائه، فأضحى بصره جليًّا من جديد، ولم تعد شفتاه ترتجفان ؛ وسرعان ما صارت معاناته مجرد ذكرى سيئة.

أمّا إزيس فقد تهلّلت فرَحًا، وبفضل كيدها نالت بغيتها. وأضحت الآن مستودعًا لاسم رع الحقيقي والشافية الكبرى والساحرة العظمى، وصاحبة السطوة التي لا يستعصي عليها مرض. ومنذ تلك اللحظة، ما عاد النسوة والرجال يتوسلون، وبملء إرادتهم، إلّا إليها حينما يلمّ بهم أيّ مرض.

وبدأ رع العجوز يفكّر في أنّ الوقت قد حان ليُخليَ مكانه على الأرض لآلهة أكثر شبابًا. وقد علمنا من قبل كيف أنّ الجُحود الذي لاقاه من مخلوقاته البشر قد دفعه، بعد فترة وجيزة من هذه الحادثة، إلى الارتقاء في السماء والاستقرار بها.

أسطورة أوزيريس



إنّ الرّوايات الّتي تَعْرِض لقصّة هذه الأسطورة والّتي تُسمّى أحيانًا « شَغَف أوزيريس » متعدّدة ومتنوّعة وضاربة في القِدَم ؛ إذ نجدها محفورة على جدران المعابد، بما فيها حجارة الأهرامات. وهذا يعني أن بعضها يعود تاريخ كتابته إلى ما يقرب عن 4500 سنة. كما توجد نسخٌ أكثر جِدّة مُدوّنة على أوراق البردي، أو ما يُعرف بـ « دفاتر الموتى ».

ذات زمان، حَكَم أوزيريس العالَم. في بدايات هذا الزمن الغابر، لم يكن البشر قد عرفوا فلاحة الأرض بعد، ذلك لأنهم

كانوا لا يزالون على طبيعتهم المتوحشة، فعلّمهم الإله كيف يستصلحون الحقول ويبذرون الحبوب التي تتيح لهم صناعة الخبز والجعة، وأطلعهم على كيفية تقليم أشجار الكروم، وعصر العنب للحصول على خمر طازج بلون الياقوت الأحمر. كما سنّ للمجتمعات البشرية القوانينَ الأولى التي تضمن لهم العيش في سلام وانسجام. وفي ظلّ حُكمه، عاشت مصر بأسرها، شمالها وجنوبها، حياةً مديدةً مِلؤها الهدوء والرَّخاء.

أعانت إيزيس، زوجة أوزيريس وشقيقته في الوقت عينه، الملك في مهامه إعانةً فعّالة ؛ كانت خبيرة في السِّحر، ولم تبخل يومًا في وضع علمها وقدراتها تحت تصرّف وخدمة زوجها الملك. وقد عاش الملكان حياةً سعيدةً في عالَم يرفل في ألف نعمة سماوية، ما جعل رعاياهما يكنّان لهما الحب والاحترام.

ولكن، كان لأوزيريس أخ يدعى « ست ». كان ست شديد الحقد على أوزيريس، ويغار منه لأن الناس لا يفتؤون يتغنّون يوميًا بمدح ملكهم المحبوب. كان يطمع في الاستيلاء على سلطة أخيه ويحلم بأخذ مكانه على العرش.

وفي نهاية المطاف، لم يعد ست يقوى على مقاومة مشاعره الشنيعة والتي ما برحت تدفعه للإطاحة بأوزيريس، فخطّط

لخديعة كي يتخلص منه. وفي بادئ الأمر، ضَمِن تواطؤ 72 شخصًا من شاكلته، أشخاص مؤذون وأشرار. ثم صنع صندوقًا مزركَشًا رائعًا من الخشب الثمين على مقاس جسد أوزيريس بالضبط، ذلك لأنه كان قد أخذ قياساته متذرّعًا بحجج واهية دون أن يخبره حقًّا فيما ستنفعه.

ووقتئذ، دعا ست أوزيريس والأشرار التابعين له إلى مأدبة عظيمة. وبعد أن فرغ الجميع من الأكل الذي كان فاخرًا، كشف ست عن الصندوق، فبُهت الحضور من جمال الصندوق وزخرفته الفنية الراقية.

وحينذاك خاطبهم ست قائلًا :

— أصدقائي، سأُهدي هذا الصندوق للشخص الذي سيستلقي بداخله، ويأتي على مقاسه بالضبط من دون ترك أدنى فراغ.

وبسرعة، تدافع الجميع للاستلقاء داخل الصندوق، وجرَّبوا حظّهم دون أن يفلح أحد منهم ؛ فأحدهم كان في غاية الضخامة، أو القِصَر، وآخر في غاية البدانة، أو النّحافة، وثالث عريض المنكبين أو بارز البطن، وغيرهم.

وأخيرًا، تمدّد أوزيريس داخل الصندوق، وما إن تموضع داخله حتى سارع ست والمتآمرون معه إلى إقفال غطائه، وتثبيته بالمسامير تثبيتًا متينًا، ثم ختموه بإحكام باستخدام

الرصاص المُذاب. ونُقل الصندوق إلى ضفة النيل حيث أُلقي في المياه التي جرفته إلى غاية الأخضر الكبير[1].

وحينما تأخّر الملِك في العودة، تملّكت مشاعر القلق إزيس، وكلّما مضى الوقت ازدادت مخاوفها، إلى أن رأت ست وقد بدأ في الاستيلاء على مقاليد السُلطة ؛ وعندها أدركت بأنّ زوجها قد راح ضحية مؤامرة مشؤومة، فأطلقت صرخة ألم عالية بلغت عنان السماء حيث يوجد كلّ من رع وتحوت، ثمّ عفّرت رأسها بالرّماد، ومزقت ثيابها وبكت بحرقة لفقدان زوجها.

ولكن، بعد مرور بعض الوقت، تمالكت إزيس نفسها من جديد، وركضت إلى أختها « نفتيس » قائلةً لها :

— أنا في حاجة لمساعدتك يا أختي العزيزة، فقد قررت أن أجد جثة شقيقنا أوزيريس بأيّ ثمن. انضمّي إليّ وهلمّي نسعى في البحث عنها دونما إبطاء.

كانت نفتيس زوجة ست، ولكنها استهجنت خيانة زوجها، ناهيك عن حبها الجمّ لإيزيس. وهكذا، وافقت أختها، وانطلقت الاثنتان في البحث عن أوزيريس.

---

1. هكذا كان يسمي قدماء المصريين البحر الأبيض المتوسط، وكانوا يطلقون نفس هذا الاسم على البحر الأحمر إلى غاية عصر رمسيس حيث أصبح يدعى بحر كودي.

اكتشفت الأختان حكاية الصندوق وعلمتا بما حدث في ختام الوليمة، وكيف أن أوزيريس قد أُلقي في النيل ؛ فتبعتا مجرى النهر إلى أن بلغتا البحر، ثم وطأتا ساحل بلدة جبيل في بلاد الفينيقيين. وكان التيار، في الواقع، قد جرّ الصندوق إلى ذاك المكان بالذات، ووجدتاه مغروسًا في الرمال بين القصب حيث استقر تحت شجرة ضخمة من أشجار السنْط التي أخفته عن الأعين وحفظته بأوراقها الكثيفة.

ومن دون إبطاء، حملت الأُختان الصندوق إلى مكان بعيد في الدلتا، وهناك فتحتاه، ثم قفلت نفتيس راجعةً إلى قصرها بجنب زوجها. وأحسّت إزيس بالسعادة حينما جلست وحيدةً قُرب أوزيريس، وقد لاحظت بأنّ دبيب الحياة لا يزال يَسري في جسده رغم المظهر البائس الذي كان عليه. وبفضل تعاويذها السحرية تمكنّت من إنعاشه، ثم اقتربت منه وحملت بطفل سيكون خليفة والده على العرش مستقبلًا.

كانت غيرة ست لا تزال متأجّجة في داخله، وبثّ جواسيسه في كافة أرجاء البلاد لمراقبة ما يحصل فيها. وسرعان ما علم بأنّ إيزيس قد عثرت على جثّة شقيقه، فوضع عليها عينًا تراقبها، وأخذ يتحيّن الفرصة لمباغتة يقظتها والتخلص من أخيه ثانيةً.

ذات صباح، ذهبت إيزيس للاستحمام ؛ فجاءت الفرصة المنتظَرة، إذ انقضّ على أخيه وقطّعه إلى أربعة عشر إربًا، ثم حمل القِطَع وجال بها في جميع أصقاع البلاد ينثرها على أرض مصر.

زوجةٌ أخرى غير ايزيس كانت ستستسلم للأمر الواقع، غير أنّ حبّها لأوزيريس كان من القوة أن جعلها، رغم حزنها والطفل الذي في أحشائها، تنطلق في رحلة بحثٍ مضنية أخرى. وطوال شهور طويلة، مسحت إيزيس ضفاف النيل بأسرها، وفتّشت الواحات، وركبت الخطر في الصحراء، ونبشت شواطئ البحر، وبحثت في كلّ الأمكنة عن أجزاء جسد زوجها الإله حتّى تمكنت في آخر المطاف من جمع القطع الأربعة عشر بأكملها. ووقتئذ، قامت إيزيس، بكلّ ما أوتيت من مهارة، بخياطة الأجزاء معًا وإعادة شكل جسد أوزيريس إلى حالته الأولى.

تابع رع، من علياء سمائه، رحلة بحث إيزيس برمتها، وتأثّر بمثابرتها ووفائها الكبيرين، فنادى الإلهة نوت وقال لها :

— اذهبي ! أعيني ابنك الراقد دون روح، أعيدي قلبه إلى صدره ! وأعيدي رأسه على عنقه !

ودون إبطاء، امتثلت نوت لأمر رع ومضت حيث يوجد جسد أوزيريس ونفّذت كلّ ما طلبه. وبعد أن أتمت مهمتها، عادت إلى مقامها في السماء.

وعندئذ أرسل رع الإله « أنوبيس » لمداواة الجروح في جسد حفيده الميت. نسج أنوبيس أشرطة طويلة وناعمة من الكتان الأبيض الناصع، ثم غلّف جثة أوزيريس تمامًا من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه. ولمّا فرغ من عمله، عاد ليُطلع رع عن النتائج قائلًا :

— ها هو جسد أوزيريس قد أضحى الآن في منأى عن أيّ اعتداء !

حيّاه رع على عمله وشكره. ولم يَبْقَ إلّا أنْ تُردَّ إلى المُتوفّى روحه الحيّة. وعُهد تحوت، إله الكلام، بهذه المهمة. فهبط إلى الأرض يحمل معه قواه السحرية العظيمة واتّجه حيث ترقد أول مومياء شهدتها الأرض.

كانت إيزيس هناك، منتصبة أمام الجسد الهامد لزوجها، كانت تُحرّك أثوابها لتثير تيّار الهواء الذي يبعث فيه بعض الانتعاش، وراحت تهزّ ذراعيها وتدندن على إيقاع حركتها بنداء الحب :

يا فتاي البهيّ، عُد إليّ وعانِقني !

ألم يَحِن الأوان يا أيها الشاب ؟

عد، فالشوق لرؤياك يذبحني.

أتراني ؟ أنا إيزيس التي أحببتها.

لقد أغرقت عبراتي الأرض.

فمنذ أمد بعيد، لم تتفرّس عيناي وجهه.
حتى والشمس تسكن كبد السماء، أُحسّ الليل في قلبي
كم ذا يـتألم هذا القلب لفراقك
عد، وأبدًا لا تبتعد !

انظمّ تحوت إله الصوت إلى إيزيس ليبثّ الحياة من جديد في أوزيريس. وبعد تلاوة بعض الكلمات السحرية والصلوات والوصايا، عاد الميّت إلى الحياة، وبات ممكنًا الآن أن تعود كل الأمور إلى نصابها، وأن يمضي أوزيريس في مطاردة ست واستعادة العرش الذي اغتصبه منه، فيعود الحكم المُبارك لذاك « الطيّب » كما لقّبه المصريون. ولكن أوزيريس، بعد أن بُعث إلى الحياة من جديد، لم يعد يريد مُمارسة مُلكِه على الأرض ؛ فابتعد إلى الأراضي المرتفعة الواقعة في غرب نهر النيل، تلك الأراضي التي لا تمسها الفيضانات أبدًا، وهناك توجد مملكة الموتى حيث بسط أوزيريس حُكمه وعاش حياةً تتعاقب أيامها وتتشابه.

وعلى الأرض، كان ست لا يزال يمسك بزمام الحُكم خارقًا بذلك كل مقتضيات العدل. غير أنّ إيزيس بقيت متشبّثةً ببعض الأمل ؛ إذ كان لديها ورقة أخيرة لتنازع بها حكم ست. لقد أبصر ابن أوزيريس الذي كان في جوفها النور أخيرًا،

بعد أن ولدته في جزيرة مهجورة قرب دلتا النيل كانت قد توارت فيها كي تحميه من شرور عمّه. كان صبيًا لامعًا كالبرق، متّقدًا كالرّعد، ساطعًا كأشعة الشمس في بواكير الصباح. هكذا كان « حورس » عند ميلاده.

رعت إيزيس ابنها حورس في كتمان تام فترة طويلة. وأبقته بعيدًا عن الأعين، حتى بلغ السن الذي يخوّله المطالبة باسترجاع عرش أبيه. فمن أجل هذا فقط ذهبت به إلى مستنقعات الدلتا حيث أرضعته واعتنت به وربّته. من أجل أن يحلّ يومٌ ينتفض فيه حورس في وجه ست. ومن أجل أن يحاسبه على أفعاله. ومن أجل أن يبعده عن الحكم لما اقترفه من جرائم. ومن أجل أن يعيد الأمور إلى نصابها الطبيعية التي تقتضي أن يُكمل الابن مسيرة والده.

إرث أوزيريس : النّزاع بين حورس وست



جاءنا نصّ هذه الأسطورة على متن ورقة بردي يعود تاريخها إلى فترة حُكم رمسيس الخامس، ما يعني أنّها كُتبت في حوالي سنة 1150 قبل ميلاد المسيح. غير أنّ قصّة العداوة بين ست وحورس أقدم بكثير من هذه الحقبة، وهو ما تشهد عليه العديد من القُصاصات الّتي حملت أعمالًا أدبيّة كانت قد دُوّنت إبّان عهد الإمبراطوريّة الوُسطى، أي بين عامَي 2300 و1800 قبل عصرنا هذا.

بعد أن حَكَمَ الأرض ردحًا طويلًا من الزمن، أضحى رع، الإلهُ الأب باعثُ النور، سيِّدَ السّماوات الآن. وقد خلفه أوزيريس

على العرش لبعض الوقت، ثم غادر بدوره الأرض موطن البشر ليصبح ملِكًا على بلاد الغرب، وهي المنطقة التي يحيا فيها الموتى.

بعد انسحابه عن الحكم، صارت مملكة الأحياء بمياهها الجارية وسهولها الخضراء ومساحاتها الصحراوية، وبأشجارها ونباتاتها المنتجة للغذاء، وبحيواناتها الطائرة والزاحفة وتلك التي تدب على الأرض، صارت مملكةً بلا ملِك حقيقي. ورغم أن حورس، ابن أوزيريس، له الحق طبيعيًا في أن يرث هذه المملكة، إلّا أنّ ست قرّر أن يحرم الشاب من إرثه بعد أن نازع والده من قبله على تاجه ثم قتَلَه قبل أن تُفلح علاجات إيزيس في إعادة بعثه للحياة. ومن أجل تحقيق مُبتغاه، طلب أن يحكم الآلهة الآخرون بمنحه الحق في المُلك على حساب ابن أخيه حورس.

وعندئذ، جمع رع المحكمة العائلية لتقرير من سيرث مملكة الأرض. وتحلّق حول إله الشمس والإله تحوت، وهما أقدم إلهين، كلٌّ مِن « شو » و « تفنوت » اللذين خُلقا في اليوم الموالي لخلق العالم. وكان هناك أيضًا ابناهما « جب » و « نوت »، فضلًا عن حفيدتيهما « إيزيس » و « نيفتيس ». أخذ شو وتحوت الكلمة وعبّرا كليهما عن قناعة واحدة، إذ قالا :

— وفقًا لمقتضيات القانون والعدل، فإن المُلك على الأرض من حق حورس، فلنعطه حقّه !

ووقفت إيزيس طبعًا في صف ابنها حورس، وأبدت موافقتها الكاملة مع هذا الرأي. وأضحى جليًا بأنّ الميزان يرجّح بقوة إلى كفّة ابن أوزيريس عندما أعلن الآلهة الآخرون تَبَنّيهم لهذا الرأي أيضًا وأكّدوا قائلين :

— إن حورس هو الأحقّ بأن يحمل التاج !

وبات ظاهريًا بأنّ الأمر قد قُضي دون أن يُحسب لرع أيّ حساب. صحيح بأنّ رع قبِل اجتماع المحكمة، ولكنه كان ينتظر، بوصفه الأكبر والإله الأعلى، بأن يكون أول من يُطلب إليه الإدلاء برأيه. قال وقد أحسّ بأنه طُعن في كبريائه :

— هكذا إذن، تظنّون بأنّكم قادرون على إصدار الحُكْم بمفردكم ؟ ولكن من تعتقدون أنفسكم ؟ أنسيتم كلّ ما تدينون به لي ؟

وبلغ به الغيظ مبلغًا جعله يقرّر مع نفسه مساندة ست. كان يعلم يقينًا بأنّ الحقّ بجانب حورس، ولكن ست كان أكثر قوّة وخبرة من منافسه الشاب ؛ فرأى رع بأنّ ست أفضل للحُكم، وعزم على الدفاع عنه أمام أعدائه إذا ما اقتضى الحال ذلك.

واضطُرّ الآلهة المشكّلون لهيئة المحكمة إلى مهادنة العجوز وهم يرون مدى غضبه. وطرحوا عليه فكرة الاحتكام إلى آلهة آخرين مِن خارج العائلة.

واستُدعي « بندبجد » الإله الحمل، وكان حاكم مدينة جدت[1]، والإله « بتاح » الإله العتيق لمدينة منفر[2]. وطُلب منهما أن يقرّرا لمن سيعود التاج، للعمّ أو لابن الأخ. تردّد الإلهان طويلًا، ثم، وبسبب حرصهما على عدم إغضاب رع ذي الطباع المتقلبة، ولا إغضاب إزيس خشيةً من قواها السحرية، اقترحا استشارة الإلهة « نيت » في مدينتها ساعو[3].

وتولّى تحوت مهمة كتابة الخطاب إلى الإلهة طالبًا منها بأن تفصل بالعدل في النزاع بين المتخاصمين. ولم يتأخّر ردّ نيت في الوصول. وتلاه تحوت في قاعة الحُكم بصوت عالٍ. لقد كان حُكْمًا واضحًا لا يقبل التأويل، ونصّ على :

---

1. عاصمة « النوم رقم 16 » (الدلفين)-المقاطعة الإدارية في مصر القديمة تسمى « النُومْ »- في مصر السفلى، وقد اشتهرت هذه المدينة أكثر بالاسم الذي أطلقه عليها الإغريقيون لاحقًا : منديس.

2. عاصمة مصر منذ عهد الإمبراطورية القديمة (حوالي سنة 2650)، وقد اشتُهرت هذه المدينة بالاسم الذي أطلقه عليها الإغرقيون لاحقًا : ممفيس.

3. عاصمة مصر في عهد الأسرة المالكة السادسة والعشرين (حوالي سنة 660)، وقد اشتهرت هذه المدينة أكثر بالاسم الذي أطلقه عليها الإغريقيون لاحقًا : سايس.

— إنّ إحقاق الحقّ يقتضي بأن يؤول إرث الأب إلى الابن، فأعطوا ست بعض التعويضات، ومكِّنوا حورس من منصبه الملكي. وكل تصرّف بخلاف هذا سيُعَدّ عملًا جائرًا !

وعمّت في القاعة غمغمات موافقةٌ لهذا القرار :

— إنه الحق الصُّراح ما قالت الإلهة !

غير أنّ رع لم يأبه لأصواتهم، فأمسك حورس بشدّة وهو في غاية الهيجان لمخالفتهم لرأيه، وقال له :

— كيف تجرؤ على الاعتقاد بأنّك أهلٌ لأن تكون ملِكًا ! فأنت بالكاد خرجت من بطن أمك ! ولو أننا ثقبنا أنفك لسال منه الحليب !

ثم غادر رع المحكمة مخلِّفًا وراءه جلبة كبيرة وتاركًا الآلهة الآخرين في حالة سخط من كلامه. ولمّا عاد في اليوم الموالي، كان موقفه قد لانَ قليلًا بعد أن فكّر جيِّدًا، وبنبرة الرجل الحليم قال :

— ماذا لو نترك المعنيَّيْن يشرحان موقفهما ويترافعان دفاعًا عن قضيّتهما ؟

ووافق الآلهة الآخرون، إذ لم يرغبوا في مخالفة رأيه بعد أن تحسّن مزاجه.

تحدّث ست أوّلًا على اعتبار أنه الأكبر سنًّا، وقال :

— إنّني قويّ، ولهذا فأنا أستحقّ أن أُكلَّل بتاج الأرضين ! مَن ذا الذي يستطيع غيري الإمساك بدفة القيادة في سفينة رع العجوز والدفاع عنه في مواجهة أعدائه ؟ بالتأكيد ليس هذا التافه !

ولكن حورس أجاب ببساطة، دون أن يردّ الشتيمة، ومُشهِدًا هيئة المحكمة :

— إنّ سلب منصب والدي أوزيريس منّي لَهُوَ فِعلٌ شائن يتعارض تمامًا مع العدل !

أحسّ رع بأنّ الآلهة يميلون مرّة أُخرى إلى منح الحق في المُلك للشاب. فاقترح، بنصيحة من ست، نقل مقرّ انعقاد المحكمة إلى الجزيرة الوسطى[1].

— سنكون في مكان أكثر هدوءًا، ما يتيح لنا اتخاذ القرار بأذهانٍ صافية.

ووافق الآلهة الآخرون وانطلقوا صوب الجزيرة. ولكنّ فكرةً جديدة راودت رع، فأخذ المكلَّف بالعُبور واسمه « آنتي » جانبًا وقال له :

1. هي مكان أُسطوري غير محدّد الموضع، لا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة السفينة.

— آنتي، لا تدع أي امرأة تعبر المياه، ولا سيما إيزيس !

وأقلّ « آنتي » الآلهة على مركبه كي يعبر بهم المياه، فيما رفض أخذ إيزيس قائلًا لها :

— أرجو أن لا تلوميني، فقد تلقّيت أمرًا صارمًا بأن أمنعك من العبور.

عرفت إيزيس مصدر هذه الضربة الموجعة، ولكنها اعتبرتها هزيمةً مؤقتةً. وتركت المركب يغادر وعلى متنه الآلهة دون أن تنبس بكلمة.

وحينما رجع المكلف بالعبور إلى الشاطئ، ألفى عجوزًا طاعنة في السن في انتظاره. كان الشيب قد غزا شعرها والسنون قد أحنت جسدها، وكانت تحمل في يدها خاتمًا ذهبيًّا صغيرًا. طلبت العجوز منه بصوت مرتعش :

— آنتي يا صغيري، هلّا عبرت بي المياه !

— مستحيل ! لدي تعليمات بأن لا أحمل أيّ امرأة على المركب !

— لا تكن أبلهًا يا آنتي ! إنّ هذه التعليمات لا تُطبَّق عليّ، وأنت تعلم ذلك ! فأنا لا أريد شيئًا سوى أن أحمل بعض الطحين إلى حفيدي الذي يرعى أبقاره في الجزيرة، إنه بانتظاره كي يعدّ وجبة غدائه !

ثم أضافت، بصوت أخفت، مُبديَةً الخاتم الذهبي له :

— انظر، لديّ هنا مكافأة مُجزيَة مقابل عنائك.

لم يقاوم آنتي، وأخذ الخاتم مقابل نقلها إلى الجزيرة. وما إن توارت عن الأنظار حتى عادت إيزيس إلى هيئتها الطبيعية، فقد كانت هي المرأة العجوز وقد تحوّلت إلى تلك الصورة باستخدام سحرها. ولم تجد أدنى صعوبة في العثور على مكان اجتماع الآلهة الآخرين وسرعان ما شرعت في تنفيذ حيلة أخرى من حِيَلها.

واتخذت إيزيس هذه المرّة هيئة فتاة غضّة لا مثيل لجمالها، ولم يكن في وسع أحد من الآلهة رؤيتها إلا ست. وعندما لمح ست هذا الجمال الخارق الخلّاب، احمرّ وجهه ثم شحب وانقلب كلّ كيانه، واقترب من الفتاة على الفور وقال لها بشغف :

— أيتها الفتاة الحسناء، تعالي معي ! فلنذهب سويًّا في جولة قصيرة، ونتوارى بعيدًا بين أشجار القَصَب !

وأجابته إيزيس مُطرقةً رأسها، وقد احمرّ وجهها تمامًا :

— مستحيل يا سيّدي ! لا بد أن أعود إلى ابني المسكين !

— مسكين ؟ لماذا تقولين بأنه مسكين ؟

— تصوّر بأن والده ترك له بعد وفاته قطيعًا كبيرًا من الماشية، ولكن أحد الغرباء سلبه أبقاره وطرده خارج بيته.

فاشتاط ست غيظًا من سماع كلامها، وعلّق قائلًا :

— ولكن هذا عمل شائن ! إنه تصرّف مخالف لكل مقتضيات العدل !

ردّت إيزيس :

— وهذا ما اعتقده أنا أيضا.

ثم طلبت منه، وهي تهديه ابتسامة ساحرة :

— ربما في إمكانك فعل شيء من أجل ابني، وعندها سيعود الهدوء لروحي...

احتدّ ست وقال :

— طبعًا ! أخبريني ما الذي أستطيع فعله من أجلك.

— لقد رأيت بأنّ هناك اجتماعًا للآلهة. اذهب وقُصّ عليهم ما حاق بولدي من ظُلم، وأخبرهم برأيك في ذاك الشخص الذي سلبه حقه. أنا واثقة من أنّ هذا سيجعلهم يعيدون لابني حقه.

ومن دون أن يفكّر، مضى ست إلى المحكمة الإلهية وعرض أمامهم الحكاية التي قصّتها عليه إيزيس. وفي ختام عرضه قال :

— أقترح بأن نلقّن هذا الشقي الذي سلب الابن إرثه الشرعي درسًا قاسيًا لن ينساه !

عندها دوّت ضحكة عالية من فوق رأس ست. رفع الآلهة أعينهم جميعًا، ورأوا حَدَأَةً مُنتصبةً على قمّة شجرة ضخمة. وصرخ الطائر، الذي لم يكن سوى إيزيس مُتنكرةً مرة أخرى :

— هكذا إذن، يا أيها الآلهة العظماء ! لقد نطق ست لتوّه بالحكم في قضيته مع حورس. لقد اعترف بلسانه أنّ تصرّفه عمل جائر !

لم يستطع رع هذه المرّة عمل شيء لصالح ست، وما كان أمامه إلا أن يقول له :

— يا صديقي المسكين، لقد أدَنْتَ نفسك بنفسك.

أمّا آنتي فقد قضى لحظات عصيبة، فبعد أن عنّفه رع تعنيفًا شديدًا وصادر منه الخاتم، قطّع أذنيه، ثم نبتت محلّهما بعد فترة مخالب فظيعة.

وبدا بأنّ كلّ الأمور قد سُوّيت. بَيْدَ أنْ ما كان متوقّعًا لم يحصل، فقد رفض ست الامتثال لقرار المحكمة وراح يطالب بتاج البلدين وكأن شيئًا لم يحدث. ولم يُبْدِ رع من جانبه أيّ تصرف لإثنائه عن عزمه. وهكذا سرعان ما عادت الأحوال إلى ما كانت عليه.

وتلا هذا فترة طويلة من المشاحنات والسجالات الكلامية والمؤامرات. ثم اقترح ست أخيرًا على خصمه الشاب اقتراحًا مفاده :

— فلنقم بمسابقة مَلَكِيّة لتحديد من منّا الأصلح للحكم. لنتحوّل إلى فَرَسَي نهر ونغطس في عمق المياه، ومن يخرج أولا سيُستبعد من المُلك !

أبدى حورس موافقته رغم اليأس الشديد الذي انتاب إيزيس خشية أن يعمد ست إلى الخديعة. وتحوّل الإلهان إلى فرسي نهر واختفيا في المياه العميقة.

وعلى الضفة، كان قلب إيزيس يخفق بشدة، وشرعت في البحث عن طريقة لمساعدة ابنها ؛ فأخذت كُبّة خيط وضفرت منها حبلًا طويلًا، ثم صنعت من النحاس كلّابًا قويًّا ذا نصل حاد، وبعد أن أوثقته بطرف الحبل ألقته في الماء في المكان الذي قدّرت وجود المتنافسين فيه.

ومن سوء حظها، انغرز الكُلّاب في جسد حورس الذي راح يصرخ كالمجنون. وبسرعة، كلّمت إيزيس الكلّاب :

— لقد أصبتَ ابني حورس ! أفلته حالًا وارجع إلى الضفة.

امتثل الكلّاب للأمر وبرز من المياه عائدًا إلى مكانه بين يدي الإلهة. وألقت إيزيس الكلّاب من جديد على أمل في أن يحالفها الحظ هذه المرة. وقد أصاب هدفه بالفعل وانغرز في جسد ست.

فنادى ست الإلهة إيزيس، وقد أضناه الألم الشديد، قائلًا :

— إيزيس ! هل نسيتِ أنّ أُمّنا واحدة، وأنّنا أنا وأنتِ نزلنا من نفس البطن ؟! كيف يمكنك أن تؤذي أخاك ؟ ألسنا من ذات الدّم واللّحم ؟!

أثّرت كلمات ست في إيزيس. صحيح أنه قد أساء التصرّف، ولكنه مُحِقٌّ، بالتأكيد، إنه شقيقها ؛ فأصدرت أمرها للكلّاب، وقد رقّ له قلبها، قائلةً :

— أطلِقْ جسد أخي ! مع أنه لا يستحق رحمتي إلّا أنني سأمنحه إيّاها.

أفلت الكلّاب جسد ست، وبات بإمكان الإله أن يُواصل بسلام مسابقته مع حورس.

ودامت المسابقة شهرًا بعد شهر، وفصلا بعد فصل إلى أن أصاب التعب الإله الأكبر سنًّا بسبب البقاء ساكنًا في قاع النهر، فعرض على منافسه الصغير :

— إنّ هذه المسابقة لن تُجديَ نفعًا في الفصل بيننا، لأنّ كِليْنا يملك نفس الإصرار والصبر الكبيرين. أقترح عليك مسابقة أخرى لتحديد من سيؤول إليه التاج.

سارع حورس إلى قبول العرض، وحينما عاد الاثنان إلى الشاطئ، أوضح ست :

— لنجري سباقًا بالقوارب. سيبني كلّ منّا قاربًا ينحته من قطعة صخرية واحدة ثم نمتطيهما. ومن سيجدّف إلى أبعد مسافة سيكون المَلِك. هل أنت موافق ؟

— موافق.

هذا ما قاله حورس، ثم انطلق في العمل على عجل.

قام ست بانتقاء قطعة ضخمة من الصخر الصلب، وأمام أعين الجميع راح ينحتها على شكل قارب. ولكن في مكان آخر ناءٍ وبعيد عن الأنظار، كان حورس قد شرع أيضًا في سريّة تامة في نحت قارب من جذع شجرة. ولمّا اتخذ الجذع الشكل المطلوب، غلّفه حورس بطبقة سميكة من الجس ؛ وهكذا، بدا القارب الخشبي وكأنه صُنع من حجر. وفي جنح الليل، استبدل حورس القارب الصخري بالخشبي وأخفى الأوّل بين أشجار القصب. ثم عند حلول صباح اليوم الموالي أعلن بأنه جاهز للمسابقة.

أمّا ست، وكي يُظهر للجميع مدى قوّته، قام باقتلاع قمة جبل كاملة وأفرغ جوفها. صنع مركبه من أكثر الصخور صلابة، وكان بطولٍ يربو عن المائة وأربعين ذراعًا. ولكن المشكلة كانت في أنه كان أيضًا بالغ الثقل، وهو ما غاب عن ذهن ست الذي، حتى وإن كان قويًّا جِدًّا، ولكنه لم يكن بالضرورة

ذا مكر ودهاء. وما إن وُضع المركب في الماء حتى غرق عموديًّا مُصدرًا صوت بقبقة عظيم. وفي هذه الأثناء، كان حورس في قاربه الخشبي قد غاب تقريبًا عن مرمى البصر.

لم يجد ست شيئًا يقوله لتبرير هزيمته، وذهب ليدفن عاره في الصحراء. ولكنه لم يلبث إلّا وقتًا يسيرًا، فبعد أيام قلائل، عاد ليُجدّد مطامعه ويطالب بمملكة الأرض.

واهتدى حورس السّاخط من هذه القضية المستمرة منذ أكثر من ثمانين سنة، والمغتاظ أيضا من الآلهة بسبب تخليهم الجبان عن ردّ حقه إليه، اهتدى إلى فكرة أن يُطلب من أوزيريس الفصل في القضية.

ووجد الآلهة الفكرة سديدة، حتى أنهم تساءلوا كيف غابت عن فكرهم. وانعقد مجلس الآلهة حيث التمسوا من تحوت، وهو أفضل من برع في فن الكتابة، أن يُحرّر رسالة إلى سيد العالم الآخر، أوزيريس. وكتب تحوت في إيجاز :

« أعطِنا رأيك في شأن قضية الخصام بين حورس وست. فبَيْن الأخ والابن، أعيتنا الحيلة والجهد في تحديد صاحب الحق في الإرث. هلّا أعلمتنا بما ترى ».

ولم يطُل الانتظار كثيرًا حتى وصل رد أوزيريس، وفحواه :

« لماذا تريدون إلحاق الظلم بابني حورس ؟ فطوال فترة حكمي على الأرض، خلقت القمح والشعير ذوا الفوائد

الجليلة للبشر والآلهة. وفضلًا عن هذه المنن، قمتُ بإرساء العدل على مملكة الأرض. بَيْدَ أنني أرى الآن بأنّ العدل غائب إلّا في بلاد الغرب حيث أقيم. لقد أضحت الأرض بسببكم مَرْتَعًا للكذب والجبن والحقارة. اعلموا أنّ هذه الأرض التي أحكُمها تعجّ بالرجال الشرسين الذين لا يهابون أيّ إله أو إلهة. ولو أسمح لهم لحملوا إليّ قلب كل من يرتكب عملًا من الأعمال الشائنة على الأرض. ولكنني أحترم صلاحيات مِلك الأرض، ولا أُسيء استخدام سلطتي. فلا تسيئوا استخدام سلطتكم أنتم أيضاً ولا تخالفوا القانون الصريح والعدل ! ».

لقد جاءت الرسالة بنبرة جافة تنمّ عن تهديد مبطّن. وراح الآلهة المجتمعون لسماع فحوى رسالة أوزيريس يفكّرون، واعترفوا بصوت واحد :

— إنّ ما يقوله إله العالم السفلي هو الحق.

وما كان أمام رع هذه المرة إلّا الاعتراف بهزيمته. حتى أنه تقبّل الخسارة عن طيب خاطر لأنّ حورس تمكّن مع مرور الوقت من إظهار ما له من قيمة. وفي الواقع، إذا كان ست هو الأقوى، فإن الإله الشاب يتجاوزه بكثير في الفطنة والحذق، ناهيك عن أن الشجاعة لا تنقصه.

إذن، أُرجع الحق إلى حورس نهائيًا على حساب خصمه ست الذي أحضِر ليمتثل أمام العجوز « أتوم » شخصيًا. وقادته إيزيس مقيَّدًا كالسجناء بأحد أرجل العرش.

خاطبته أتوم بلهجة شديدة :

— لماذا تريد الاستيلاء على مُلك حورس ؟

وأدرك ست بأنه خسر الحرب. ماذا يستطيع أن يفعل بعد ؟ لا شيء سوى الإعلان أمام الملأ تخليه عن كافة مطامعه في حكم مملكة الأرض، وقال :

أيها الإله، استدعِ حورس ابن أوزيريس وإيزيس، وامنحه عرش والده !

وهكذا، وُضع تاج مملكة مصر على رأس حورس، وأُجلس على عرش الأرضين. ثم خاطبه الشعب قائلًا :

— لك كل الثناء، يا ملك بلدنا المحبوب، وسيّد الحياة ! فلتحكم بفضائلك الأرض بأسرها زمنًا أطول من الزمن الأبديّ.

وغنيٌّ عن القول أنّ الفرح قد غمر إيزيس وهي تشاهد الإشراقة على مُحيّا ابنها حينما خلف أباه على الحُكم أخيرًا. أمّا ست فقد قرّر مرافقة رع في رحلته اليومية بين الأفقين، وصار هو من يُطلق الزمجرة التي نسمعها في السّماء عندما تهيج عاصفةٌ أو إعصار.

الأسد وابنَا آوى



لا شكّ في أنّ الكُلّ يَعرف « حكايات لافونتين »، ومنهم من يَعلم أنّه استوحاها من الرُّواة الإغريقيّين واللّاتينيّين الّذين كتبوا حكاياتهم قبله بكثير. ولكن المصريّين القُدماء كانوا أيضًا بارعين في ابتكار شخصيّات حيوانيّة، ويُعطون على لسانها دروسًا وعِبرًا لقُرّائهم ومستمعيهم. وهذا ما سيظهر من خلال الحكايتَيْن التّالِيَتَيْن.

في قديم الزمان، كان ابنَا آوى يعيشان في الصحراء الشاسعة الواقعة على تخوم وادي النيل من جهة الغرب. كانت تربط بينهما صداقة متينة قِوامها الوفاء، حتى أنهما لم يكونا

يفترقان، ولم يُرَ أحدهما قَطْ دون أن يظهر الثاني بسرعة، ليذهبا معًا للشرب في منبع الماء، أو السعي وراء الغذاء أو الاحتماء من قيْظ الظهيرة إلى الظل المُنعِش تحت الأحراش. وكان الشريكان يتشاطران كل الأشياء، الجيِّد منها والسيِّئ، وهذه هي السِّمة الأساسية للصداقة الحقّة.

في الساعات الأولى من ذات صباح، راح ابنَا آوى يبحثان عن شيء يملأ بطنهما، ولكنّ حظهما العاثر قدّر لهما أن يُصادفا أسدًا عندما انعطفا بقرب صخرة ضخمة. وكان هذا الأسد مثلهما يسعى في منطقته بحثًا عن طعامٍ يُطفئ به جوعه.

لو كانت في مكانهما حيوانات أخرى لانطلقت هاربة في أسرع ما يمكن، ولكنّ ابنَيْ آوى بقيا ساكنين، كما لو أنّهما لم يخافا ؛ وأُصيب الأسد بالذهول من سلوكهما الشجاع هذا، وبدلًا من أن ينقضّ عليهما بسرعة ويفترسهما، سألهما :

— ما الذي جعلكما لا تهربان ؟ ألم تريا بأنني أسعى في الصيد وأنني في غاية الجوع ؟

أجاب أحدهما :

— لقد أدركنا ذلك يا سيدي الأسد، ولكننا بعد التفكير قدّرنا أنه سيكون من الحكمة أكثر ألّا نهرب.

تفاقم ذهول الأسد، وقال :

— تزعمان بأن سلوككما حكيم. في رأيي، إنه العكس تمامًا، فالحكمة تقتضي أن تجريا بأسرع ما يمكن كي تحاولا النفاذ بجلدكما، وليس أن تنتظرا من دون حراك أن أمزقكما إربًا إربًا.

وردّ الثاني :

— ماذا كان الجري سيفيدنا ؟ فأنت أكثر منا سرعة. ولو أننا حاولنا الهرب، كنت ستلحق بنا على أي حال. والفرق الوحيد هو أنك، في هذه الحالة، كنت ستتعب من ملاحقتنا...

قاطعه الأسد دون أن يعرف قصد ابن آوى :

— يا لها من صفقة رابحة ! ولكن هذا لا يُغيّر في الأمر الشيء الكثير بالنسبة إليكما.

— إنك مخطئ، فحينما تكون مُتعبًا، ستُنهك قواك، وسيكون موتنا أكثر بُطأً، وأكثر ألمًا، وسنعاني لوقت أطول.

وأردف الحيوان الأول :

— في الواقع، نُفضّل أن يكون موتنا سريعًا ودون معاناة، ولهذا اخترنا عدم الهرب كي نُواجه قَدَرَنا الأليم وأنت في كامل قواك.

قال الأسد في نفسه بأنّ تفكيرهما فيه كثيرٌ من المنطق. وفي الإجمال، فإن ابني آوى تكلّما عن الحكمة بشكل صائب. غير أنه بادرهم مُلاحظًا :

— كان في وسعكما الهرب مُتفرّقَيْن، كل واحد في جهة مُختلفة ؛ وما كنتُ استطعتُ الركض وراءكما معًا، وكنت سأمسك بواحد منكما فقط، أما الآخر فسينقذ بجلده.

أجاب ابن آوى الأول :

— مستحيلٌ أن يحدث هذا، لقد تعاهدنا على أن نبقى أصدقاء في الحياة والممات. أي أنه إذا هلك أحدنا...

— ... يهلك الآخر أيضا.

وصرخ الأسد بنبرة توحي بعدم تصديق كلامهما كثيرًا :

— أوووه ! عهود الصداقة.

سأله ابن آوى الأول :

— هل حدث وأن سمعت حكاية القطة والعُقاب ؟

أومأ الأسد نافيًا.

— إنها حكاية تثبت أنّ من ينْقُض عهد الصداقة لن يطول عليه الأمد ليلقى عقابا مريرًا.

قال الأسد وقد تملّكه الفُضول :

— هلّا حكيتها لي ؟

وراح ابن آوى يسرد عليه القصة :

« على قمة إحدى أشجار النخيل، شيّد عُقابٌ عشه ووضع فيه بيوضه التي فقست عن جملة من الفراخ الجميلة.

وكان في أسفل الشجرة، بين الجذور، جحر بالغ الكبر والعمق. وقد اختارته قطةٌ مكانًا لتؤوي فيه صغارها الذين ولدتهم لتوّها.

لكنّ المشكلة أن هذا الجوار لم يكن ملائمًا للعُقاب ولا للقطة. فقد كانت القطة تخشى أن ينزل العُقاب، حينما تغيب، ويأخذ أولادها ليقدّمهم طعامًا لصغاره. أمّا العُقاب فقد كان يخاف أن يترك عشه، لأن القطة قد تغتنم فرصة غيابه وتتسلق الشجرة وتأخذ الفراخ لإطعام ذريتها.

وهكذا، لم يجرؤ أحد منهما على الخروج للصيد، وسرعان ما أصبحت الوضعية في أعلى الشجرة وفي الجحر وضعيةً لا تُطاق ؛ فما عاد صغار العُقاب وصغار القطة يكفّون عن الشكوى والأنين تحت وطأة الجوع الشديد.

عندئذ نزل العقاب لمُلاقاة القطة، وقال لها :

— لا يمكن أن نستمرّ على هذه الحال، وإلّا سيموت كل صغارنا جوعًا. ما قولك في أن نتعاهد على الصداقة ؟

قالت القطة :

— سيكون هذا الصواب بعينه، ماذا تقترح علي ؟

قال العُقاب :

– لنوقّع عهد صداقة، عِديني بألّا تأكلي فراخي، وألّا تقدّميهم طعامًا لصغارك. وأقسم بنفس الشيء أنا كذلك.

– موافقة ! قالت القطة.

– وبما أننا تعاهدنا على الصداقة، فسأحرُس قططك حينما تذهبين للصيد، وبدورك، ستفعلين نفس الأمر مع فراخي عندما أغيب عنهم.

ووجدت القطة هذا التدبير رائعًا، وتعاهدت هي والعُقاب رسميًّا على التعاون والصداقة. ومُذّاك، دأبت القطة على الذهاب للصيد هانئة البال، وعند عودتها، يذهب العُقاب في نفس الغرض.

ومرت الأيام الموالية دون مشاكل، فقد احترم الطائر والقطة العهد بحذافيره، وكبُر صغارهما وهم ينعمون بالغذاء الجيّد أمام أنظارهما.

وبعد فترة وجيزة، لم يعد هناك من داع لحراستهم، وكان الآباء يغيبون كيفما شاؤوا دون الانشغال بما يفعله الساكن الآخر في النخلة.

ولكن ذات صباح، وبينما ذهب العُقاب للبحث عن الطعام، خرج أحد صغار القطة من الجحر ليستمتع بقطعة لحم

كانت بحوزته، فاشتمّ أحد صغار العقاب من على قمة الشجرة رائحة اللحم، ولم يستطع مقاومتها. قفز من العش وحلق صوب الأرض ثم استولى على قطعة اللحم بغتةً، بَيْدَ أنه لم يتمكّن من الهرب، ذلك لأنه لم يكن يجيد الطيران بعد. وانقضّ القط عليه ليستعيد طعامه مُشهِرًا مخالبه، فقُتل الطائر في هذا العراك.

حينما رجع العقاب إلى العش، استفسر من صغاره عمّا حصل. وحكوا له القصة بتفاصيلها، ولم يكن في امكانه تقبّل هذا المصير البائس الذي لقيَه صغيره عند أول غلطة يرتكبها، وقرر الأخذ بالثأر له.

انتظر العُقاب القطة حتى ذهبت للصيد كما اعتادت فعله كل يوم، ونزل إلى الجحر وأخذ القطط الصغيرة، ومن دون أن يولي للعهد الرسمي الذي قطعه أدنى اعتبار، قتلهم بلا رحمة ولا شفقة. وبعدها طار إلى وكره وقدّمهم طعاماً لصغاره.

عند عودتها، لم تجد القطة صغارها، وسرعان ما قادتها آثار الدم إلى معرفة ما حدث. وصاحت في العُقاب :

— يا أيها البائس ! لقد نقضت عهد الصداقة الذي قطعناه وأن لا يمس أحدنا بصغار الآخر ! ألم تعلم بأن الآلهة

تعاقب من يحنث بالوعد من أمثالك ؟ أرجو أن تلقى عائلتك قريبًا نفس المصير الذي حكمت به على صغاري المساكين !

ثم، وهي تلعن العُقاب مرة أخرى، آوت إلى الأحراش حيث أطلقت العنان لأحزانها.

ولم يلبث الطير الجارح طويلًا حتى حلّ به العِقاب ؛ فما إن ذهبت القطة حتى ظهر أحد الصيادين في الجوار. أوقد الصيّاد نارًا تحت ظل النخلة، ثم وضع حجلًا سمينًا كان قد ذبحه لتوّه ليُشوى على الجمر.

وراح العُقاب الرّابض في أعلى النخلة يراقب الصيّاد. وما إن رآه يبتعد صوب النهر المجاور، حتى اندفع محلّقًا تحليقًا رائعًا واستولى على الحجل. ثم عاد على عَجَل إلى عشه ظافرا بغنيمته.

ولكنه، من عجلته، لم يلاحظ الفحم المتّقد العالق باللحم. فشبّت هذه الجمرات حريقًا في العش وفي ريش الصغار. وأُسقِط في يد العُقاب وهو يرى فراخه يحترقون أحياء أمام عينه.

وعندما سمعت القطة صرخات الفراخ اليائسة، عادت إلى الشجرة، ثم قالت :

— لا تنتحب أيها العُقاب ! فإنك لم تنل إلا ما تستحقه على نقضك عهدنا وقَسَمك زورًا. لقد نبهتك بأن السماء تُعاقِب بشدة من لا يحترم كلمته ! ».

وهنا، ختم ابن آوى كلامه، قائلاً :

— هذه هي حكاية القطة والعُقاب. إنها تُعلّمنا بأنّ ناكث الوعد لا بد أن ينال ما يستحقه يومًا ما، وأنه لن يُفلت أبدًا من تَلقّي العِقاب العادل !

أصغى الأسد للقصة حتى نهايتها باهتمام بالغ، ثم هز رأسه تعبيرًا على موافقته لما جاء فيها.

وعندئذ قال له ابن آوى الثاني :

— هل فهمت الآن لماذا لم يهرب أحدنا منفردًا عن الآخر طلبًا للنجاة بنفسه ؟

— أفهم، وأوافقكما الرأي. وفي الواقع، فضلًا عن أنكما حكيمان، فقد أذهلتماني بما أظهرتما من وفاء وشرف. هيا اذهبا ! فسُأبقي على حياتكما في هذه المرة وكل مرة أصادفكما فيها مستقبلًا. ولن أمسكما بسوء أبدًا.

ابتعد الأسد في أبّهة، وقد انتابه الفخر، ذلك لأنه يحكم رعيّةً تضمّ أفرادًا رائعين مثل ابني آوى هاذين.

الأسد والفأرة



يُروى أن أسدًا كان يعيش قديمًا في الصحراء الشاسعة المحاذية لنهر النيل من جهة الغرب. كان حيوانًا كريمًا ومُهابًا وقادرًا أن يبطح أيّ فردٍ من أهل المنطقة بضربة واحدة من قدمه ؛ ولهذا كان الكل يخشاه ويحترمه، وكانوا جميعهم، كبارا وصغارا، يرتجفون من سماع زئيره.

ذات يوم، وبينما كان يتجوّل في منطقته الرحبة، صادف فهدًا. كان الفهد في حال يُرثى لها أثارت دهشة الأسد، فقال له :

— ماذا حدث لك ؟ أرى أنّ شعر جلدك قد اقتُلِع بُقَعًا بُقَعًا، وأنّ جسمك تملؤه الرضوض والجروح ؟ قل لي، من أساء معاملتك بهذا الشكل ؟

أجاب الفهد بنبرة تُثير الشفقة :

— إنه الإنسان.

تعجّب الأسد :

— الإنسان ؟ من يكون هذا الإنسان ؟

— إنه أكثر الكائنات فظاعة وكَيْدًا ! أنصت لنصيحتي وتجنب الوقوع في طريقه ! واحرص أشد الحرص على أن لا تقترب منه حتى لا تقع تحت سطوته!

صاح الأسد وقد استبدّ به الغضب :

— ماذا ! هل بإمكان هذا الإنسان أن يهزمني ؟! ولكن هذا من سابع المستحيلات ! لا، لن أرضى بالهرب، بل سأنطلق حالًا للبحث عنه. وحينما أجده سنتصارع، وسنرى من منّا الأقوى.

كان الفهد يعرف الأسد جيِّدًا، وأدرك بأن لا شيء سيحمله على تغيير رأيه. فودّعه من دون أن يضيف كلمة، في حين سار الأسد بحثًا عن الإنسان.

ولم يلبث الأسد طويلًا حتى التقى بالحصان والحمار. كان كل منهما يحمل شكيمة تسدّ فمه ولجامًا يشدّ عنقه. كانا يركضان بكل ما أوتيا من سرعة ويجرّان خلفهما عربة ضخمة تثير عاصفة من الغبار.

انتصب الأسد في وسط الطريق وأشار إليهما أن يتوقفا، وقال :

— من الذي ربطكما إلى هذا الشيء، يبدو أن جرّه أمر شاق جدًّا ؟ ولماذا تركضان كاليائسين ولا تنتظران حين يخفّ القيظ في المساء ؟

أجاب الحصان :

— نجري لأنّنا هاربان.

تعجب الأسد :

— هاربان ؟! ولكن ممن تهربان ؟

— مِن ذاك الذي جعل منّا عبدين ! الإنسان ! لقد ربطنا إلى هذه العربة كي يجعلنا أحمالًا ثقيلة.

— ولكننا هربنا. ونحن نجدّ في الركض حتى نفلت من قبضته.

صاح الأسد في دهشة كبيرة :

— تعنيان بأن الإنسان أقوى منكما وأنتما مُجتمعان معًا !

— أجل، أكثر قوة، وخاصة، أكثر مكرًا وحيلة ! أنت كذلك، احترس من أن تقع تحت سطوته. حتى وإن كنت أسدا سيعاملك الإنسان كما عاملنا، وسيجعل منك خادمًا له !

اعترى الأسدَ الذهولُ ممّا سمع، ولكنه أخفى ذلك. هزّ رأسه في تفاخر كي يُظهر عدم خشيته من شيء، ثم حيّا الحصان

والحمار اللذين استأنفا عدْوهما الجَموح. أما هو فقد انطلق في بحثٍ حثيثٍ أكثر من ذي قبلُ عن الإنسان، وقال في نفسه : لن أتأخّر في الوصول إليه وأُريه من منّا الأقوى !

وبعد بُرهة، وضعت الصدفةُ في طريق الأسد الثورَ والبقرةَ. كانت قرونهما مبتورة، وأنفاهما مثقوبين بهما خاتمان ضخمان، كما كان رأساهما يرزحان تحت نير ثقيل يلوي رقبتيهما. فسألهما الأسد :

— من الذي أهانكما هكذا.

أجاب الثور والبقرة بصوت واحد :

— إنه الإنسان ! الإنسان، أكثر المخلوقات دهاءً، وأكثرهم إرعابًا !

وبعد ذلك قابَل الأسد الدّب. كانت مخالبه قد انتُزعت من قوائمه، وأسنانه الكبيرة المرعبة قد اختفت من فمه. فشعر الأسد بالألم لرؤية هذا الحيوان المُخيف والمحترَم على مثل هذا الضعف، وسأله :

— هل الإنسان، مرة أخرى، هو الذي جعلك في هذه الحالة التعيسة ؟

أجاب الدب :

— آه ! لقد أصبت الحقيقة في قولك. إنه هو من جعل مني الحيوان العاجز الذي ترى. لقد ارتكبت حماقةً بأن

أخذت أتباهى بقوّتي أمامه. فأبدى إعجابه ودهشته، ثم عرض علي طعامًا قبلته عن حسن نيّة، وما إن تناولت مشروبًا كان من ضمن الطعام حتى رُحت أستغرق في نوم عميق، وعندما أفقت كان الإنسان قد اختفى، وكانت أسناني ومخالبي قد اختفت أيضًا. وها أنا ذا أضحيت بسببه أضعف من دب صغير يرضع من ثدي أمه !

وعند سماعه هذا الكلام، أطلق الأسد زأرة غضب وقال :

— إنّ الإهانة التي تعرّض لها الدّب هي إهانة لكل الحيوانات.

ثم فكّر في أنّ الإنسان لا مَحالةَ سيقع قريبًا بين مخالبه وسيجعله يدفع الثمن غاليًا على كل المآسي التي سبّبها للدّب والفهد والحصان والحمار والثور والبقرة.

وما إن استأنف مسيره مجدّدًا حتى وجد نفسه وجها لوجه مع أسد آخر. كانت إحدى قوائم المسكين الأمامية محشورة بين شقي شجرة وهو يهزّها عبثًا بقوائمه الثلاث الأخرى محاولًا تخليصها.

سأل الأسد :

— ماذا حدث يا أخي ؟ كيف وقعت في هذا الفخ ؟

أجاب الأسد الثاني :

— إنه الإنسان، إذا ما صادفته فاركض بأقصى سرعة وإلى أبعد مسافة تستطيعها، ولا تصغي لما يقوله أبدًا، ولا تصدّق أيّ وعد يقطعه لك ! انظر إليّ، وإلى الحالة البائسة التي أنا عليها، لقد أخبرني بأنه يملك سرّ الشباب الخالد. وكان خطئي أنني صدقته ووثقت به، ورافقته إلى هذه الشجرة حيث شقها نصفين بفأسه. ثم قال لي : « إن كنت تريد توديع هموم الشيخوخة إلى الأبد، فضع رجلك في وسط هذا الجذع »، ومن حماقتي صدّقت زعمه. فوضعت رجلي ثم سحب الفأس بشدة فانطبق الجذع عليها. وبعدها جعل الإنسان يضحك عندما ترجّيته بأن يُحرّرني، وانصرف.

انتابت الأسدَ حالةٌ من الغضب الشديد بسبب هذه القصة، وراح يزأر بشدّة وعنف فارتعدت فرائص كلّ الحيوانات المقيمة في الجوار، الكبيرة منها والصغيرة. ثم أردف :

— يا أخي، أقسم بأن يدفع الإنسان ثمن الألم الذي سبّبه لك ! سأثأر لك، أعدك.

وواصل الأسد مسيرة بحثه قاطعًا الجبال والتلال والسهول والوديان. ودون أن ينتبه، داس بقدمه الضخمة فأرةً صغيرة جِدًّا لا يزيد حجمها عن حجم جرادة.

توسلت الفأرة إليه :

– أرجوك لا تفترسني يا سيدي الأسد. فإنك ترى كم أنا صغيرة ! وإنْ التهمتني فستكون كمن يلتهم الريح، ولن أُشبعك أو أُغنيك من جوع. وسيكون من الصواب لو تُبقيني حية، فلعلّني أوفيك هذا الصنيع يومًا ما.

أجاب الأسد :

– أنتِ ؟! الأضأل من دودة الأرض ؟! كيف يمكنك أن تفعلي أيّ شيء من أجلي أنا، الأقوى من بين كل الحيوانات ؟ أم أنّ الخوف يجعلك تتلفظين مثل هذه الحماقات !

– إنك لا تعلم ما يخبّؤه لك المستقبل. وإن احتجتني في يوم من الأيام فسأكون حاضرة لمساعدتك، كن واثقًا من هذا. ولكن يجب أن تُبقي على حياتي طبعًا.

أجاب الأسد مزهوًّا رافعًا منكبيه :

– إنّك مغرورة جِدًّا حتى تفكّري في أنّ أحدًا مثلي قد يحتاج أحدًا مثلك. ولكنّك مُحقّة في أنّ أكلك لن يفيدني في شيء. اذهبي إذن، فأنت حرّة ! وتذكّري بأنك تدينين بحياتك لكرم أخلاقي !

– سأذكر ذلك. ولا تتردّد في طلبي إذا احتجتني !

انفجر الأسد ضاحكًا وقد سلّته ادّعاءات الفأرة، بينما راحت هي تجري في أقصى سرعة قبل أن تختفي داخل إحدى الحفر. ولكنه لم يكن يعلم بأنّ ضحكاته قد بلغت أسماع الإنسان الموجود في الجوار، فشرع هذا الأخير سريعًا في نصب فخ للأسد، وحفر في سفح نخلة كبيرة حفرة عميقة وأخفاها بغطاء من الأغصان والأوراق، ثمّ تسلّق الشجرة ونادى الأسد ؛ وما إن سمعه حتى انطلق وهو يتوق لمبارزة الإنسان توقًا شديدًا، ولم ير الحفرة فسقط بداخلها.

ترجّل الإنسان من على الشجرة، وألقى بشبكته التي أوثقت الأسد بإحكام وشلّت حركة أرجله. اغتاظ الحيوان غيظًا شديدًا وزمجر وزأر بأقصى ما أمكنه، ولكنّ الإنسان لم يرفّ له جفن، ثم قال له :

— أردت أن تبارزني كي تعرف الأقوى من بيننا. والآن، عرفت. وإن كان لا يزال في نفسك بعض الشك من هذا، فسأتركك تفكّر حتى صباح الغد، وحينها سأعود وأقتلك.

وهكذا رجع الإنسان على أعقابه ضاحكًا وهو مزهوّ بنفسه.

واعترف الأسد أخيرًا وهو في الفخ بضعفه، وأنه لا يملك، رغم سطوته وشراسته، إلّا انتظار الصبح والموت في آن واحد. ثم أغمض عينيه في حزن. أين هي أَنفته، غطرسته،

كبرياؤه ؟ هو الذي تعتبره الحيوانات ملِكًا سيموت في هذه الحال البائسة داخل حفرة، عالقًا في شبكة لعينة كعصفور صغير أو سمكة !

وبينما كان مُستغرقًا في أفكاره المريرة هذه، أحسّ الأسد بحركة طفيفة بجواره. وما إن فتح عينيه حتى وجد فأرة صغيرة جدًّا تُحدِّق فيه بعينيها الدائريتين.

— سألته الفأرة : هل عرفتني ؟

أجاب الأسد في صوت كئيب :

— أجل.

— إذن يمكنك أن تفرح بصنيعك الكريم معي لأنني سأرد لك الجميل حالًا ومن دون تأخير. وعليك أن تعترف بأنني أوفيت بوعدي في مساعدتك بسرعة. ولا تنسَ أبدًا بأنك، رغم ما بلغت من عظمة وقوة، تدين بحياتك لهذا الحيوان البالغ في الضعف والصغر.

وهكذا، طفقت الفأرة تقضم عُقَد الشبكة الواحدة تِلْوَ الأخرى ؛ وسرعان ما تمكّن الأسد من تحريك عضلاته المفتولة، وتمديد قوائمه، وأخيرًا وثب خارج الحفرة.

وبعدما شكر الأسدُ الفأرةَ الصغيرة وأثنى عليها الثناء الذي تستحقه، استأنف طريقه إلى الصحراء على عجل، ولاحقًا، كان يحرص أشدَّ الحرص على تجنّب أيّ لقاء جديد مع الإنسان.

شكاوى المُزارع



لاقت هذه الحكاية الّتي تسرد لنا مجريات إحدى الدّعاوى القضائيّة، والّتي تُعرَف أيضًا باسم « شكاوى الفلّاح » أو « حكاية ساكن الواحة »، لاقت رواجًا كبيرًا في وقتها، إذ نجدها مدوّنة في ما لا يقلّ عن أربع برديّات، تعود أقدمها إلى فترة حُكم أمنمحت الثالث (1842-1797 قبل الميلاد). وشكّلت إلى جانب « قصّة إرث أوزيريس » و« حكاية سنوحي » و« حكاية الغرق » أثرًا أدبيًّا تفتّق عن ذهن كاتب من الكُتّاب الكُثر الّذين أبرزوا مواهبهم قبل 40 قرنًا من الآن في زمن الأسرة الحاكمة الثانية عشرة.

يُروى أنّ فلّاحا يُدعى « خونانو » كان يعيش في « واحة الملح » قديمًا، وكان يقتات وزوجته « ميراي » ممّا كانت تدرّه عليهما الأرض، وبعض التجارة مع المدن المصرية.

خاطب الفلّاح زوجته ذات يوم :

— سأهبط إلى مصر لأقتني ما نحتاجه لمعاشنا، نحن وأطفالنا. اذهبي إلى المخزن وانظري ما بقي لنا من شعير.

ذهبت الزوجة ثم عادت قائلة :

— لدينا بالضبط ثماني كَيْلات من الشعير.

قَدَّر خونانو كمية الزّاد التي ستكفيه في سفره وطلب من زوجته أن تصنع له الخبز والجعة التي سيأخذها معه، ثم قال :

— ستتناولين أنت والأطفال ما تبقّى.

وبعدها وضع الصناديق على حميره وحمّلها بمختلف أنواع المنتوجات التي سيُتاجر بها، مثل القصب والنطرون[1] والملح والأخشاب وجلود الفهود وفِراء الذئاب المُصطادة في الصحراء المجاورة، هذا فضلًا عن كميات كبيرة من النباتات الجافة والحبوب العطرية المختلفة المُنتجة في الواحة.

---

1. النطرون هو نوع من أنواع الملح (كربونات الصوديوم) الضرورية في عمليات التحنيط.

بعد أن ودّع أسرته، اتخذ خونانو سبيله نحو « نينيسو » في الجنوب. ولمّا وطأت قدماه أرض « برفيفي »، وجد رَجُلًا مُتّكئًا على أحد الأسوار، كان يُدعى « جحوتي »، أحد مزارعي المشرف الكبير « رنسي »، الذي كان أيضًا ابن « ميرو ».

حينما لمح جحوتي الحمير وما تحمله، فكّر في نفسه قائلًا : « كيف الوسيلة للاستحواذ على ما يحمله هذا الفلّاح ؟ ».

كانت الطريق بجوار منزل جحوتي ضيّقة ومحاذية لإحدى القنوات ؛ إذ كانت المياه تحدّها من جانب، وحقل شعيرٍ من الجانب الآخر.

أمر جحوتي أحد خدمه، وقال :

— اركض إلى المنزل واجلب لي قطعة قماش !

ذهب الخادم وعاد في لمح البصر، ثم قام جحوتي بفرش قطعة القماش على طول الطريق، بحيث تلامس المياه من جهة وتغطي الشعير من الجهة الأخرى. وهكذا لم يتمكّن الفلّاح من عبور ذلك الطريق، وصاح فيه جحوتي :

— احذر ! إياك أن تدوس على قماشي.

أجاب الفلّاح :

— لست أنوي فعل ذلك.

— ولا تفكّر كذلك أن تدوس على شعيري.

أجاب الفلّاح ببعض الحنق :

— إنّك تحتل الطريق بقماشك، كما أنّ شعيرك يطغى على الدرب ! أنت تريد بهذا أن تمنع الناس الشرفاء من العبور ؟!

وفيما كان يتحدّث، قضم حمار نَهِم من حمير الفلّاح حزمة من الشعير. وما إن رأى جحوتي ذلك حتى شرع في البكاء والشكوى، كما لو أنّ أحدًا طعنه :

— ها هي ذي حيواناتك تخرّب زرعي ! لقد أحضرتَها إلى هنا عن قصد كي تلتهم شعيري. ولكنك لن تُفلت بفعلتك هكذا !

ومن دون أن يُمهل الفلّاح المسكين الوقت ليردّ، التقط جحوتي غُصنًا من أغصان شجرة « الأثل » وراح يضربه، بينما سحب الخدم الحمير وما تحمل إلى داخل منزله.

وعندما توقف وابل الضرب، استعاد خونانو أنفاسه، ثم صرخ :

— إني أعرف من هو مالك هذه المنطقة، إنه المشرف الكبير « رنسي ». هل يُعقل أن أُضرب وأُسرق على أرضه، وهو المُكلّف بإرساء العدل على المنطقة بأسرها ؟

ولكنّ جحوتي لم يُلْقِ له سمعًا، ودخل بدوره إلى المنزل دون أن يجيبه بشيء. وعندها طفق خونانو يطرق الباب بقبضته مطالبًا بردّ حميره إليه وكُلّ ما كانت تحمله على ظهرها. غير أنّ قاطني البيت تظاهروا بعد السماع.

وظلّ خونانو طوال ستة أيام يدعو ويتوسّل إليهم بأن يعيدوا إليه ممتلكاته دون جدوى. وبعد أن أنهكه التعب، توجّه إلى المدينة ليطلب من المشرف الكبير شخصيًّا أن يعيد إليه حقه. وقابله أمام بيته، وهو يهمّ إلى النزول في جرف النهر حيث كان قاربه في انتظاره. وبعد أن ألقى عليه التحية الواجبة، خاطبه خونانو :

— سيدي، لقد أتيتك شاكيًا، ذلك أنني وقعت ضحية...

قاطعه المشرف بإشارة منه، وقال :

— ليس لديّ وقتٌ لسماعك الآن. توَجَّه إلى مُساعدي واعرِض عليه قضيتك بالتفصيل. سأطّلع منه عليها عند عودتي، وغَدًا في المحكمة سأنظر في قضيتك وأنا عالِم بكل تفاصيلها.

وهكذا روى خونانو مآسيه للمساعد والذي أعادها بدوره على مسامع سيده. وعزم رنسي وقد انتابه بعض الحَرَج من أنّ أحد مُزارعيه يقف موقف المتَّهم، عزم على استشارة أصدقائه وأقربائه، والذين كانوا جميعًا من الوجهاء والعيان، فنصحوه بتجنّب تعريض سمعته للشُبهات ؛ إذ قال أحدهم :

— مع هؤلاء الفلّاحين، لا يمكننا الوثوق في شيء. ومن قال لك بأنه فعلًا كان يملك حميرًا وبضائع ؟

وقال آخر :

— إنهم دائمًا ما يثيرون المشاكل من أجل تُرّهات وسخافات. وأفضل ما تفعله هو أن تتجاهلهم !

وقال ثالث :

— لن تقوم بمعاقبة مُزارعك من أجل قليل من النطرون وبعض الحبوب ! وإذا ما اقتضى الأمر، اطلب منه أن يعوّض الفلّاح. هذا، إن رأيت ذلك ضروريًا.

التزم المشرف الكبير الصمت وهو يصغي لأقوالهم. وفي صباح اليوم الموالي، مَثَل أمامه خونانو وقال :

— سيّدي، هلّا أبحرت في بحيرة العدالة الهادئة، حيث الرياح مواتية، وحيث لا يُمزَّق شراعُك، ولا تُكسر ساريتك، وحيث لا تخشى التيارات ولا الارتطام العنيف بالشاطئ حين رُسُوِّك به، وحتى الأسماك الوَجِلة بطبيعتها تدنو منك ! لأنك بمثابة الأب لليتيم، والزوج للأرملة، والأخ للمرأة المُتَخلّى عنها، والكساء لمن لا كساء له ! أَعِد لي حقي يا أيها المرشد الموقّر ! ادمغ الباطل وأحِقّ الحق ودمِّر الشر ! وهكذا ستظل الأسمى شهرةً في البلاد !..

واصل خونانو الحديث بنفس النبرة ونفس الأسلوب إلى غاية نهاية الصبيحة من دون أن يأخذ قسطًا من الوقت يتناول فيه شربة ماء تنعش حلقه.

ورغم إعجابه بطلاقة لسانه، قاطع المشرفُ خونانو مُخبِرًا إياه بأنه سيتدبّر وينظر في قضيته. ثم انطلق لملاقاة فرعون. وقال وهو ماثلٌ بين يديه :

— سيدي، لقد قابلت فلّاحا ذا لسان فصيح يأسر اللباب. أنا واثق من أن كلامه سيعجب جلالتكم ويسلّيكم كثيرًا.

أجاب الملك :

— إذا كنت تعتقد ذلك، فماطله بشكلٍ يجعله يُفرغ كل ما في جعبته من كلام. ثم أحضروا ما يقوله مدوَّنًا ليُقرأ على مسامعي. واحرص على أن لا تحتاج زوجته وأولاده شيئًا، لأنّ هذا الفلاح على ما يبدو لم يأتِ إلى مصر إلّا لأنّ بيته خَلا من أكل. وزوّده سِرِّيًا بالخبز والجعة دون أن يعلم بأنك مصدر هذا الغذاء.

نفَّذ المشرف الكبير أوامر الملك. وبحلول الغد، مَثَل خونانو أمامه للمرة الثانية. وانطلق يقول :

— سيدي، عندما تُحقّ الحق، فأنت بمثابة الشاقول، وبمثابة دفّةٍ تقودها قبضةٌ مُحكمة، وهكذا لن تحيد سفينتك عن مسارها قَيْدَ أنْمُلة. ولكن انظر، لديك في بيتك كل ما تحتاجه لعيشك، لا الخبز ولا الجعة ينقصانك. فلماذا يطمع من هم في خدمتك في المزيد ؟ إذا سمحتَ - أنت العادِل والنزيه - بارتكاب الظلم، فأيّ مثالٍ نعطيه

للمحتالين ! ذاك الذي يعطي الهواء هل يمكنه أن يسقط أرضًا عاجزًا عن التنفس ؟ ذاك الذي يُرشد الناس إلى طريق الحق هل يمكنه أن يتسامح مع السارق ؟ وبينما يدوم الشر زمنًا طويلًا، لا يأخذ إصلاحه إلا لحظات !

ومثلما انطلق في الحديث، استمر الفلاح برَوِيَة على نفس النسق إلى غاية إسدال الليل ستاره. وعندما رأى المشرف الكبير بأنه قد سمع ما يكفيه، نهض دون أن ينبس بكلمة وغادر قاعة المحكمة ؛ فاضطُرّ خونانو إذّاك إلى السكوت.

ولكنه عاد في اليوم التالي ليمثل أمام المحكمة للمرة الثالثة وقال :

— أنت قويٌّ وذراعك متينة، ولكن قلبك قلب طيرٍ كاسر لا يعرف للرحمة سبيلًا ! إنك تقود مركب العدالة دون أن تبصر أمامك، إنه يمضي إلى الهاوية. ولو أصبح المرشد البصير السامع ضريرًا أصَمًّا، فإنه سيحيد عن الوجهة الصحيحة، ويقود من كُلّف بارشاده إلى الضلال !

وهكذا، طفق خونانو يتحدث ويتحدث إلى أن أحس المشرف الكبير فجأةً باكتفائه من السماع. وأشار إلى حارسين بأن يمسكوا الفلّاح ويسحبوه خارجًا، وعند عتبة الباب انهالا عليه بوابل من الضربات بعِصِيّهما. وانصرف خونانو وهو يعرج قليلًا ويفرك خاصرته من أثر الضرب، ولكن هذا لم

يمنعه من المثول أمام المحكمة للمرة الرابعة في اليوم الموالي، وعندها قال :

— إلى متى ستُغمض عينيك وتصمّ أذنيك متجاهلًا قضيّتي ؟ إنك إن لم تستجب للخير فإنك تشجع الشر ! ضع كل شيء في نصابه الحقيقي ولا تخلط بين الشرف والنهب وبين الصدق والكذب ! لأنك إذا جانبت طريق الحق، سيزدهر الباطل وينمو كنبتة خبيثة ترويها الأمطار...

ومرة أخرى، راح خونانو يتحدث بإسهاب إلى أن رفع عينيه فرأى المشرف عاقد الحاجبين، فقرر، وقد تعلم من درس الأمس، الاكتفاء بهذا القدر، فكفّ عن الكلام فجأة ثم انصرف.

غير أنه ما لبث أن عاد في الصباح الباكر من اليوم الموالي ليعرض شكواه للمرة الخامسة. ولم يكن مضطرًا للذهاب إلى غاية منزل المشرف الكبير، فقد صادفه وهو خارجٌ من المعبد ؛ فصاح قائلًا :

— إنها لَمُفاجأة كبيرة أن أراك تخرج من المعبد بينما الظلم ينشر جناحه على كل البلاد التي نُصّبتَ وصيًّا عليها ! ولكن، لعلّك جئت لتقتدي بـ « تحوت »، ذلك الإله الذي لا يحكم أبدًا مع محاباة هذا الجانب أو ذاك ؟ صدقني، سيكون جديرًا بك لو تتذكر أنّ العدل يتبعنا إلى

عالَم الخلود، العدل يرافق صاحبه إلى القبر. صحيح أنّ العادل حينما يموت يُدفن تحت الأرض، ولكنّ اسمه لن يمحى أبدًا، وسيُخلّد ذكره بسبب ما قام به من خير. ولعل هذا ما جئت تسعى لسماعه من الإله.

كان المشرف الكبير يعلم بأنّ خونانو قادر على الكلام بنفس هذا النسق إلى غاية حلول وقت الغداء وأكثر، ولكنّ مزاجه في ذلك الصباح لم يكن ملائمًا لسماع شيء، فأسرع إلى دخول منزله وأغلق الباب من خلفه. وما كان أمام الفلّاح إلّا الانصراف وانتظار اليوم التالي كي يعرض التماسه لسادس مرة، وحينها قال :

— خمس مرّات وأنا أخاطبك كي تنظر في قضيّتي دون أيّ جدوى أو نفع. هل سأظلّ على هذه الحال كل حياتي، حتى نهاية عمري ؟ لا تحرم فقيرًا من القليل الذي يملكه. أنت تعلم بأني رجلٌ أكدّ كدًّا شديدًا لأسدّ رمقي ورمق عائلتي. هذه البضائع القليلة التي أطالب بها هي نفحة الحياة لهذا البائس الواقف أمامكم، ومن دونها تنتهي حياتي، والذي يسلبني إياها يخنقني كمن يُطبق بيديه على رقبتي ! وأنت، لقد عُيّنت للفصل بين المتقاضين، وملاحقة المجرمين، ومعاقبة اللصوص الوقحين ! بَيْدَ أنك

لا تقوم بشيء سوى مساندة السارق لأنه من أهل بيتك ! آهٍ ! كم هي خائبةٌ فيك ثقةُ من نصّبك قاضيًا، الآن وقد وقفتَ في صفّ المجرمين ! إنه كمن يشيّد سدًّا لحماية البريء من الغرق، ثم يُلقى به في المياه...

ومرة أخرى، استمر خونانو في مرافعته بفصاحة لسانه المعهودة لفترة طويلة، ولم يكن يعلم بأن كلامه كان يُدوَّن بحذافيره طوال خمسة أيام تنفيذًا لأوامر الملِك، إذ كان ثمّة كاتبٌ يختبئ كل يوم خلف الستار ويصغي لكل الكلام ويسجّله على لفافة جديدة من ورق البردي.

حينما حلّ اليوم الموالي ظهر خونانو مجدّدًا في قاعة المحكمة، حيث كان الكاتب قد هيّأ لفافة الورق لتدوين التماسات الفلّاح للمرة السابعة التي قال فيها :

— سيدي، إنّ كل حُكم يُتّخذ بعد تحقيقِ حياديّ يقوم به القاضي لا بد وأن يُزيل آثار الكذب ويعبّد السبيل أمام الحقيقة، ويفتح أبواب الخير ويدمّر الشر ! وكما يطرد الشبع الجوع، ويطفئ الماء الظمأ، ويستر الكساء العاري، وتُبدّد النار إحساس البرد، وتُشتت الشمس الغيوم بعد العاصفة، هكذا يُثلج القضاء صدر المتقاضين الشرفاء الواثقين في عدالته ! ولكنّ الشر يأبى إلّا أن يتواطأ

القاضي مع السارق ! وأن يترك البُستانيّ حقله يغرق في الأكاذيب وشهادات الزور كي تستفحل السرقة والاحتيال في امتلاك الأشياء ! استفق ! لا تكن متخاذلًا ولا متردّدًا، وتَصرّف بحزم لإحقاق الحق في شكواي التي أرفعها إليك.

ترك المشرف الكبير الفلّاح يتحدث دون مقاطعته، ودام هذا فترة طويلة حتى أدرك خونانو بأنه لن يصل إلى ما يصبو إليه في هذا اليوم أيضًا، فصمت وانصرف.

وللمرة الثامنة عاد الفلاح ليعرض التماسه في اليوم الموالي، وقال :

— إن استقرار البلاد لا يقوم إلّا على العدل، وأنت، يا من يحمل ميزانه، حافِظ على توازنك ! لأنك إن مِلت، فسيميل الميزان أيضًا. لا تكن خفيفًا في قراراتك، لأن عواقبها ثقيلة. فتّش عن الحقيقة. كن سيّد اختياراتك وقراراتك. لا تُهمِل أيّ قضية لأنك قد تجعلها أعقَد. كن مُرحِّبًا حينما يلجأ إليك أحدٌ للحكم في قضيته العادلة، ولكن فكّر في أنّ التّساهل مع الشر لا يجلب إلّا مزيدًا من الشّرّ. واعلم بأنّ لامبالاتك ستُضيّعك، أنت الذي تتراخى عندما يتعيّن عليك أن تتصرّف بحزم، وتتردّد وتماطل طويلًا عندما يتعيّن عليك اتّخاذ قرار مستعجل !..

وفي هذه المرة أيضًا، ترك المشرف الكبير الفلّاح يتكلم قدر ما شاء، تطبيقًا لتوجيهات الملك. وأخذ يفكّر في أن تخمينه كان صحيحًا وأنّ خونانو ظاهرةٌ حقيقية.

ونظرًا لعدم حصوله على ردّ في ذلك اليوم، حضر خونانو إلى المحكمة في الغد ليعرض التماسه لتاسع مرّة، فقال :

— سُراّقٌ ولصوصٌ ونُهّابٌ، هذا ما صار عليه من عُيّنوا لردع الشر ! وأنت لا تشذّ عن هذه القاعدة ! لديك أراضي في الريف، وتُقيم في مسكن فاخر بفضل وظيفتك، وتأخذ طعامك من مخازن الغلال العمومية، ولكن كل هذه المزايا لا تكفيك. فَلِكي تستمع لشكوى الشاكين، يجب أن يأتوا مُحمّلين بالهدايا ! إنني أرى بأنه لا يمكن التعويل عليك لإرساء العدل. لقد أدركت الآن بأنني أهدر وقتي معك، إذ أنني أخاطبك مسترحمًا ولكنك لا تصغي. لذا سأمضي لأعرض دعواي بشأنك لدى أنوبيس[1].

وبعدها أدبر الفلاح وخرج دون أن يضيف كلمة. وسرعان ما أرسل المشرف الكبير في أعقابه حارسين لإعادته. وحالما رآهما، اعتقد خونانو في نفسه بأنه سيُعاقب على جرأته في

1. نحن نذكر بأن أنوبيس هو إله الموتى، والفلاح يلمّح إلى أن المدير يجب أن يدفع في العالم الآخر ثمن الظلم الذي تغاضى عنه.

الخطاب الذي ألقاه. وبالطبع كان يودّ أن لا يعود، ولكن لم يكن أمامه من خيار إلّا أن يرافقهما.

وعند وصوله إلى قاعة المحكمة، وجد الكاتب الذي سجّل كل ما تفوّه به من كلام منذ بداية القضية. وكان يبدو على المشرف الكبير الارتياح وقد تبسّم في وجه خونانو وحرص على طمأنته قائلًا :

— لا تخف ! فأنا لا أريد أذيّتك لأنني لست ظالمًا كما تزعم. أريدك فقط أن تستمع إلى ما كتبه هذا الرجل وتخبرني إن كان هو نفسه الكلام الذي قلتَه.

راح الكاتب يقرأ في لفافات ورق البردي التي دوّن عليها كل شيء. أنصت خونانو بإمعان ثم أعلن بأن هذا ما قاله فعلًا، كلمةً بكلمة.

وعندئذ، حمل المشرف الكبير أوراق البردي إلى القصر الملكي ليضعها بين يدي جلالة الملك. أُسِرّ الملك سرورًا كبيرًا بها، ودون انتظار، أمر بأن تُقرأ على أسماعه، وقضى مُعظم الليل في الاستماع، وقد أُعجب كثيرًا برباطة جأش الفلّاح وطلاقة لسانه. وما إن انتهى من آخر مرافعة حتى بعث إلى المشرف الكبير بالرسالة التالية :

— حكّم ضميرك وقرر كيف تفصل في قضية هذا الفلّاح.

وهكذا، بعث المدير الكبير بمساعده واثنين من حرسه إلى مسكن جحوتي لإجراء جردٍ مفصّلٍ لممتلكاته وإحضاره بين يدي المحكمة.

نفَّذ الخدم مهمتهم وعادوا بلائحة طويلة ضمّت، فضلًا عن ستة خدم منزليّين يعكفون على خدمة جحوتي، مؤونة ضخمة من الشعير والحنطة، والخضر الجافة، والماشية الكبيرة والصغيرة. كما حَوت أيضًا عددًا كبيرًا من الحمير والبضائع المتنوعة كالقصب والنطرون والملح والخشب وجلود الفهود وفراء الذئاب والأعشاب والحبوب العطرية...

سأل المشرف الكبير جحوتي بنبرة جافة :

— كيف تملك كل هذا العدد الكبير من الحمير ؟ ومن أين حصلت على كل هذه السلع ؟ فلم نعتد أن نرى مُزارعًا مثلك يحوز كل هذه الأملاك !

التزم جحوتي الصمت من حرجه. وكان قد اختلق كذبةً مُبهمةً ليُشهرها في وجه من قد يطالبه بتفسيرات عن الأمر، إذ كان يعتقد أن القضية ستنتهي بين يدي موظف صغير أو حارس بسيط كي ينظر فيها، ولن يجد عناءً حينذاك في أن يخدعه بمعسول الكلام أو يقدم له رشوة. ولكن الوقوف بين يدي المشرف الكبير أمر آخر، فقد أدرك في الحال،

من الملامح العابسة للمشرف، بأنه غير جاهز ليُصدّق كذبه. وكي لا يُفاقم وضعه، فضّل الامتناع عن الإجابة وانبطح على الأرض صارخًا :

— الرحمة !

وعندها، أمر المشرف الكبير حراسه باعتقال جحوتي وأوسعوه ضربًا أليمًا بعِصيّهم، فَقَدْ جاء دوره الآنَ ليُضرب ! ثم قرر بأن تُصادر كل أملاكه وتُعطى للفلّاح وزوجته وأبنائه. وبما أنّ جحوتي كان يحتاج لعملٍ يكسب به قوت يومه، وضعه المشرف الكبير في خدمة خونانو. وهكذا بات في وسع المُزارع السابق عديم الذمة أن يتدبّر وهو يفلح الأرض في « واحة الملح »، يومًا بعد يوم، بشأن الأخطار التي قد يواجهها المرء عندما يتخلّى عن نزاهته في بلد يُقام فيه العدل وفقًا لما يُمليه القانون.

حكاية سنوحي



يتعلّق الأمر هنا أيضًا بأحد الأعمال الأدبيّة الرّائجة في مصر القديمة. وقد كانت لمغامرات سنوحي شعبية واسعة إلى درجة أننا نجد منها المئات من الروايات المدوَّنة على أوراق البردي أو ألواح الأوستراكا[1]. ويُعتقد بأنّ أحداثها جرت إبّان حُكم أمنمحات الأوّل[2] وحُكم

1. هي لوحات من الطين يُكتب عليها حينما تكون الأرض مبتلّة ثم تجفّف.

2. اعتلى سدّة الحكم في فترة مُضطربة، وقد مات هذا الفرعون الذي أطلق عليه الإغريقيون « أمينيماس » مغتالًا ؛ وهذا ما جعل مسألة خلافته محفوفة بالمصاعب.

سنوسرت الأوّل[1]، وهما الملكان المؤسّسان للأسرة الحاكمة الثّانية عشر (في القرن العشرين قبل ميلاد المسيح).
وقد جاءت هذه القصّة على لسان سنوحي ذاته، ولذا نَجِدُ أنّ الكاتب يستعمل ضمير المتكلّم...

إنّه خريف العام الثلاثين من حُكم أمنمحات، الجميع في بلاد الأرضين مُنشغلون في خدمة الحقول التي أخصبتها الفيضانات، وإعمال فؤوسهم وعزقاتهم في الأرض، وتحضير الحبوب الصالحة للبذر. وبينما كانت الأمور تسير هكذا، تُوفي الملك القوي أمنمحات، ودخل القصر في حالة حداد، وقام خدم وأقارب الملك المتوفى بتغطية رؤوسهم بالرماد، وتملّكت أفراد الشعب حالة من النحيب والنواح.

في هذه الأثناء كان الأمير القوي سنوسرت، ولي عهد المملكة، يقود عملية عسكرية في السهول المتاخمة من جهة الغرب لأرض الشمال[2]. وبعد أن لاحق عصابات اللصوص ودحرها، قفل عائدًا إلى المملكة، وفي الطريق وصل

1. يعني اسمه حرفيًا « ابن (الإلهة) أوسرت »، وحكم هذا الفرعون المعروف أكثر باسمه الإغريقي « سيسوتريس »، بين 1962 و1928 قبل ميلاد المسيح، ويُعدّ واحدًا من الملوك المرموقين في عصر الإمبراطورية الوسطى.

2. « أرض الشمال أو تامح »، هكذا كان يسمي المصريون المنطقة من بلادهم التي كان يطلق عليها الإغريقيون « الدلتا ».

المبعوثون ليبلغوه نبأ وفاة والده. ورغم أن الليل كان قد انتصف، عجّل سينوسرت في الذهاب إلى العاصمة. وانطلق كالصقر تصحبه حاشيته دون أن يُخبر جيشَه بما حدث.

وقد كان للملك أبناءٌ آخرون خرجوا هم بدورهم ضمن جيوش أخرى في حملات عسكرية، وهم أيضًا جاءهم المبعوثون لإبلاغهم بالخبر. ولقد كنت بقرب أحدهم حينما قَدِم رسول من الرّسل وأعلمه بوفاة والده. ودون سعي مني، بلغ أسماعي كل الكلام.

لم يكن في هذه الأخبار ما يبعث على الرضا في نفسي، لأنني أدركت، وأنا استمع لكلمات المبعوث، الأمر الذي دفعه للتصرف على هذا النحو. ارتعبت روحي، وتشنجت ذراعاي، وجعلت أرتجف كالورقة تعبث بها الرياح. لقد كان في الأمر مؤامرة تُحاك ضد سينوسرت. وكنت مشوّشًا لأنني، ولِحَظّي العاثر، أُوجَد هنا. وتمنيت من السماء لو أنني لم أغادر القصر الملكي حيث كنت أمارس مهامي كمستشار للأميرة نيفرو، زوجة سينوسرت !

عزمت على الفرار دون أن أفكّر كثيرًا، فاختبأت أوّلا بين الأحراش لأتوارى عن أعين المارّة في الطريق. كنت أعلم بأنّه اعتبارًا من الآن سيكون من الخطير الدخول إلى العاصمة،

وإن اندلعت الحرب حول خلافة الملك، كما كان محتملًا، سيعتقد الوارث الشرعيّ بأنّني خُنته وسيعاقبني لذلك.

إذن، لم يكن أمامي حلٌّ غير الهرب، فاتّخذت سبيلي نحو الجنوب ومشيت عدة أيام حيث قطعت المستنقعات والمروج، وعبرت القنوات متوخّيًا الحذر والسرية. وفي عديد المرات، كنت أتوقف على مشارف الحقول الزراعية ريثما ينصرف العاملون بها. وكنت أقتات مما أجد، وأطفئ عطشي كيفما استطعت، ولا سيما من خلال الآبار التي كنت أمرّ عليها.

ثم اعترضني النهر، فقطعته عبر قارب من دون دفّة بمساعدة ريح غربية مواتية. وهكذا، واصلت سيري إلى الشمال إلى أن بلغت « أسوار الأمير » التي شُيّدت على الحدود لصدّ لصوص الصحراء، وجعلتُ أمشي بمحاذاتها، غير أنني كنت أُضطرّ لقضاء النهار كلّه منبطحًا تحت دغل من الأدغال خشية أن يلمحني أحد الحراس، ثم أستأنف سيري مستترًا تحت جنح الليل.

وفي نهاية المطاف، بلغت منطقة « البحيرات المرّة ». وهناك أصبح السير على الرمال وتحت الحَرّ أمرًا بالغ العناء. ونفذ الماء منّي، ثم هويتُ على حافة الطريق، وأنا أحسّ الجفاف في حلقي، وحدّثتني نفسي بأنّ طَعم التراب في لساني المنتفخ من الظمإ هو ذاتُه طَعم الموت.

ولكني سمعت جلبةً فرفعت رأسي، لمحت نعاجًا وماعزًا يسوقهم بعض البدويّين يقتربون مني. ومن حسن الحظ أنّ أحدهم كان قد زار مصر في الماضي، وتعرّف إليّ. سقاني بعض الماء والحليب الساخن، ثم استضافني بين أهله حيث عاملني الجميع أحسن معاملة.

وبين هؤلاء الرعاة، استرجعت قواي وجسارتي. ورافقتهم خلال بعض الوقت قبل أن أستقر في كادم[1] حيث أقمت ما يقرب عن العامين. وأثناء ذلك، علمت بأنّ سنوست أفلح في استلام مقاليد الحُكم، وما عاد أحدٌ ينازعه في سلطته. ورغم رغبتي في العودة إلى أرض الوطن، لم أفعل ذلك خوفًا من أنّ هربي قد فُسِّر على أنني كنت من بين المشاركين في المؤامرة ضد الملك، وأنني ما هربت إلّا لخشيتي من أن يُنتقم منّي.

وعندئذ، ربطت اتصالات مع أمير رتنو[2] الذي استفسر عن سبب منفاي. ودون أن أخفي عنه الحقيقة، أجبته :

— لم أفعل شيئًا أُلامُ عليه، ولكنّ سوء حظي قدّر بأن أوجد في المكان غير المناسب في الوقت غير المناسب.

1. مدينة في فلسطين نعتقد أنها كانت تقع في الجنوب الشرقي لمدينة « جبيل ». وفي زمن سنوحي، لم تكن هذه المنطقة قد دخلت بعدُ تحت الحكم المصري.

2. يطلق هذا الاسم على أحد الشعوب وبلده الذي يقيم فيه، ويقع حاليًا في منطقة الجنوب الغربي لسوريا.

وأخشى أن يفهم الملك سلوكي فهمًا خاطئًا، وهذا ما يدفعني للبقاء بعيدًا.

صدّق الأمير كلامي وعرض عليّ أن ألتحق بحاشية قصره قائلًا :

— ستكون سعيدًا لأنك ستعيش بين أناس يتحدثون لغتك المصرية.

وفي الواقع، كان حول الأمير العديد من أبناء وطني يخدمونه ويُسدون له النصح. ولقد عاملني هذا الأمير الكريم أحسن من معاملة الوالد لولده، فزوّجني من ابنته الكبرى ومنحني أرضًا خصبة تُدرّ كميات معتبرة من التين والعسل وزيت الزيتون والفواكه من مختلف الأشكال والألوان والشعير والقمح. كما أنّ الخمر كان أكثر وفرة من الماء، وكانت رؤوس الماشية، الكبير منها والصغير، التي لا تُعدّ ولا تُحصى، تسرح في المراعي التي أملكها.

أمضيت هناك عدة سنوات، وأنجبت أطفالًا، كبروا وأصبحوا بدورهم أقوياء وأثرياء. ولم أتوانَ قَطّ في نجدة أبناء جلدتي عند الحاجة، فقد كنت أعرف واجبي تُجاه الآخرين، فأروي العطشان وأداوي المريض وأُرشد الضّال إلى طريقه الصحيح.

كما ردَدْت للأمير فضله، وقُدت جيشه إلى النصر كلّما خرج في حملة عسكرية. ودائمًا ما كنت أغتنم الفرص لأُظهر شجاعتي وبسالتي ونجاعة خُططي.

وهكذا إلى أن جاءني يومًا شخصٌ ضخم الجثة إلى خيمتي طالبًا أن يتحدّاني. لقد كان رَجُلًا ذا قوّة خارقة، إذ هزم كل من تجرّأ على الوقوف في وجهه. طلب الرَّجُل منّي أن أعطيه كل ما أملك، وإلّا سيُصارعني ويهزمني ثم يستولي على أملاكي بعد أن يقتلني.

وما إن بلغ هذا الخبر أسماع الأمير حتى آتاني ليكلّمني ويسألني ما الذي دفع هذا الشخص كي يتحامل عليّ. كما أراد أن يعرف إذا كان هناك من وسيلة لتهدئته، فأجبته :

— لَم أسبّب له أيّ ضرر قَطّ. حتى أنني لا أعرفه. وما تحدّيه إيّاي إلّا بدافع الغيرة من المكانة التي أحضى بها لديك. وليس لديّ من حلّ إلّا مجابهته والانتصار عليه.

تمنى لي الأمير الحظ الطيب، وطمأنني مجدَّدًا بأنه يقف بجانبي. وقضيت الليل كله، في تهيئة نفسي، وضبط قوسي وسهامي، وشحذ سيفي.

وعندما طلع النهار، كان الناس قد احتشدوا فعلًا، مُتطلّعين بفارغ الصبر لحضور النّزال. وتقدم باتجاهي ذلك الذي فرض نفسه خصمًا لي.

كانت الجماهير كلها تساندني وتهتف لتشجيعي. شرع عدوّي في رمي حرابه نحوي الواحدة بعد الأخرى بقوة مهولة، ولكنّي تمكّنت من تجنّبها جميعًا بالتمايل تارة في جهة،

وتارة في جهة أخرى. وعندها اندفع كالحيوان المفترس ملوّحًا بفأسه الضخمة. تناولت سهمي الأول ورشقته به فانغرز في عنقه ؛ أطلق صرخة وتوقف في مكانه، ثم هوى إلى الأمام ممرّغًا أنفه في التراب، وعندها قضيت عليه بفأسه.

وأطلق الجمهور صيحات الفرح، أو صيحات الفرج بالنسبة للكثير ممن كانوا يخشون إصابتي بسوء. أمّا أنا، وبينما كان الأمير يحضنني بارتياح، فقد أرجعت الفضل للآلهة التي حفظتني.

لقد خُيّل لخصمي أنّ في إمكانه الاستيلاء على كل أملاكي، ولكن السماء بلطفها أرادت أن يحدث العكس ؛ وصارت المواشي ومُؤن الحبوب والزرابي وكل ما كان موجودًا في خيمته مُلْكًا لي. وهكذا أضحيت فائق الثراء وأحد أكثر الشخصيات نفوذًا في كل البلاد.

ولكن مع مرور السنوات وتعاقب الفصول، استيقظ الألم في قلبي بسبب العيش في بلاد أجنبية، وأخذ يتفاقم أكثر فأكثر، وشعرت بالشيخوخة قد بدأت تنقضّ عليّ وبصري يوهن وذراعاي تضعفان وركبتاي تذويان. وفكّرت في أنّ اليوم الذي أُحمَل فيه إلى دار الخلود قد بات وشيكًا. وحدّثت نفسي بأنني لن أرى مصر ثانية، تلك البلاد التي شهدت مسقط رأسي. وفكّرت في أسى بأنني لن أتلقّى مجدّدًا أوامر من

سيدي نفركارع المُعظّم[1]، ولن أذهب إلى القصر مرة أخرى لإلقاء التحية على الأميرة كما اعتدت أن أفعل سابقا ! ولن أقوم ثانيةً بإيصال الرسائل لأبناء الملِك !

وبينما كنت أعتصر حزنًا، سمع الملك عنّي وعن كل ما فعلت من أجل إعلاء كلمته وأنا بجانب أمير « رتنو ». فأرسل إليّ مبعوثيه محمَّلين بالهدايا الفاخرة، والرسالة التالية :

« أمرٌ مَلَكيّ للرّفيق سنوحي،

لقد آثرتَ المنفى في البلاد البعيدة بمِلء إرادتك. فما الإساءة التي اقترفتَها لتخشى تحامُلنا عليك ؟ لا شيء، على ما أرى. إذن عُد إلى الوطن. سترى مجدّدًا القصر الذي كبرت فيه، وبعد أن تقبّل الأرض من تحت البوابة المزدوجة الكبيرة، ستعود ثانيةً واحدا من أصدقائي. فكِّر في اليوم، الوشيك ربما، الذي تنتقل فيه إلى عالَم الخلود. هنا، ستحظى بالحنوط من زيت وشرائط نسيجية، وسنضعك في تابوت من الذهب وحجر اللازورد، وستُسجّى إلى قبرك على عربة تجرّها الثيران في موكب من الموسيقيّين والنائحات. وسنقرأ لك لائحة القرابين ونذبح الأضاحي أمام ضريحك. بَيْدَ أنك

1. وهو ذاته « سنوسرت »، ولكن المؤلّف أطلق عليه الاسم الملكي. مع العلم أن الملوك إبان الإمبراطورية الوسطى كانوا يحملون أكثر من خمسة أسماء رسمية.

إن مِتَّ في بلاد أجنبية، فلن نحملك إلى القبر، بل سنُخيطك بداخل جلد كبش بسيط ونلقي فوقك كومةَ من التراب وبعض الأحجار.

لقد أضحيت الآن شيخًا هرمًا لا تُطيق حياة الترحال. إذن كما قلت لك : عُـد ! ».

وما إن انتهيت من قراءة هذا الأمر حتى اعتراني فرحٌ عارمٌ وعِرفانٌ صادق. جثَوْتُ على ركبتاي ثم، وأنا أفكر في المَلِك الذي عفا عني، لامست التراب بجبهتي قائلًا في نفسي :

– لقد كان هربي إلى البلاد الأجنبية خطأً، ولكن سيدي الرؤوف سمح لي بأن أُمضي الأيام الأخيرة من حياتي داخل قصره ! فكل الثناء والشكر له !

وهكذا سارعت بإرسال هذا الرد للملك :

« جلالة ملك الأرضين العظيم، ولتمُدّك الآلهة بالقوّة وطول الحياة، وتمنحكم الخلود الأبدي ! إنّ خادمكم المتواضع لسعيدٌ لعلمه بأنكم غير متحاملين عليه بسبب فراره وأنكم تتفّهمون تصرفه. ولم تكن فعلتي هذه عن سابق إصرار وترصُد، ولكن لا أدري بالضبط ما الذي دفعني للهرب. لقد كان أمرًا كالحلم. لا أحد تعرّض لي بالتهديد أو المضايقة. ولكنني توجّست خوفًا، وشرعت كل فرائسي في الارتعاد ودُفعت للهرب وفق إرادة الإله الذي قدّر ذلك.

ولكنّ غربة خادمكم المتواضع لم تكن من غير نفع. فلقد أتاحت له التعرف على أمراء يُوالون مصر ومن شأنهم أن يصبحوا حلفاء أوفياء لها. فلتأمروا إذن أن يُستدعى إلى قصركم حاكم « رتنو » فلقد أظهر دومًا وُدّه لك ورغبته في خدمتك. وافعل الشيء ذاته مع الأمير « مكي » حاكم « كادم » والأمير « خنتيوياوش » حاكم خنتكشو[1] والأمير « مينوس » حاكم بلاد فنخو[2] واحتضنهم كأصدقاء.

أمّا أنا خادمكم المتواضع فمستعدّ للتخلي عن مهامي كوزير في البلاد التي أقيم فيها طاعةً لأوامركم في الحال ! فلتكن كلمة جلالتكم هي العليا، ولتحفظكم الآلهة حفظًا أبديًا ! ».

وإنْ هي إلّا أشهر حتى قدِم وفد من مصر للبحث عني. وريثما نقلت كل أملاكي من قطعان ماشية وحقول وأشجار مثمرة لأبنائي، شددت الرِّحال عبر الطريق القديمة المتاخمة للبحر نحو الجنوب إلى أن بلغتُ حدود أرض الشمال. وهناك كانت السفن[3] التي أرسلها الملك في انتظاري، وكانت

1. هي إمارة صغيرة في فلسطين لا نعلم عنها شيئًا غير اسمها.

2. أصبح الفينيقيون الذين وطأت أقدامهم المكان في الألفية الثالثة قبل الميلاد، أصبحوا حُكّام سواحل ما يسمى حاليًا بلبنان وسوريا.

3. يجدر الذكر بأن التواصل والتنقل بين المناطق كان يتم أساساً عبر المياه، فكل المناطق الآهلة كانت تتموقع بمحاذاة النيل أو إحدى القنوات.

محمّلة بالهدايا للذين رافقوني حتى هذا المكان. وقد سُعد الجميع بهداياهم ولكنّهم تحسّروا لفراقي. ثم قمت بعجن الخبز وطهيه وعصر الجعة وتصفيتها، لاستعمالها زادًا لسفرنا. وهكذا نشرنا أشرعة سفننا وانطلقنا صوب إتجيتاوي[1] حيث يقيم الملِك وأسرته.

ومع طلوع النهار، جاءني عشرة رِجال ليصحبوني إلى القصر. وبعد أن لمست بجبهتي الأرض أمام التماثيل المنتصبة على بوابة القصر، استقبلني أبناء الملِك وقادوني إلى جلالته. ووجدت الملك جالسًا على عرشه الذهبي ولكن ما إن انبطحت على بطني لتحيّته حتى فقدت وعيي. وحينما كنت أستعيد إدراكي، في منتصف الطريق بين الحياة والموت، سمعت جلالة الملك يقول لرجل من رجال البلاط : « ساعده على النهوض حتى يستطيع التحدث إليّ »، وعندما استقمت مجدّدًا على قدماي رغم بعض الترنّح، بادرَني جلالته بقوله :

— ها أنت ذا قد عدت بعد أن هربت وعشت حياة المنفى في البلاد الأجنبية.

فساورني الاعتقاد بأنه سيعاقبني فقلت :

1. كانت تقع قرب مدينة « ليشت » الحديثة، واختارها « أمنمحات » عاصمةً له لأنه رأى بأن « طيبة » تقع بعيداً جداً عن المناطق الإقتصادية المهمة في امبراطوريته.

— ها أنا أمامك وحياتي رهن يديك، وليفعل بي جلالة الملك ما يريد !

غير أنه نادى على أبنائه وزوجاتهم، وقال لهم :

— انظروا ! لقد عاد سنوحي.

حملق الجميع فيّ، ثم أطلقوا صرخة تعجُّب، ودون أن يتعرّفوا عليّ، قالوا لجلالة الملك :

— إنه ليس سنوحي ! إنّ هذا بدويٌّ ابن بدويّ !

أجابهم الملك وهو يبتسم من جهلهم بي :

— أجل، إنه هو بشحمه ولحمه. لقد كان هاربًا ولكنه عاد ليحتلّ مكانه بين أصدقائي.

وبعد عودتي إلى هذا النعيم، أقمت في إحدى شقق القصر الملكي، وكانت بها كمية من الأثاث واللوازم المنزلية المجلوبة من خزائن الملِك. وسهر على خدمتي جيش من الخدم والحشم الذين أزالوا آثار السنين من على جسدي عن طريق تحميمه وتدليكه ونتف زوائد الشعر فيه، كما قصّوا شعري ومشّطوه وخلّصوه من القمل الذي يتكاثر في الصحراء. ومزّقتُ ثوبي الصوفي الغليظ واستعضت عنه بآخر ناعم منسوج من الكتان، واستبدلتُ الرمل الخشن حيث كنت أنام بسرير أملس ليّن.

كانت أيّامي تحت كنف صديقي الملِك وأبنائه أيّامًا هانئة، إذ كانت تُحْضَر إليّ من المطابخ المَلكية ثلاث أو أربع وجبات يوميًّا. كما بُنيَ لي هرم حجري بجانب هرم سيدي الملك، وزُوِّد بالأثاث الوثير كالذي جرى العُرف على وضعه في القبور، حتى أنني حظيت بتمثال على هيئتي مطلي بالذهب وعليه ثوب مصنوع من الذهب الخالص، ذلك لأن الملك بجلالة قدره هو من نحته بيديه. وهكذا يُمكنني القول بأن لا أحد حظِيَ بهذا القدر من الخيرات مثلي ؛ فقد رفلت في نِعَم وأفضال الملك حتى نهاية عمري.

كانت هذه حكاية سنوحي، قُصّت عليكم من أوّلها لآخرها كما جاءت في وثائقها الأصليّة.

الأمير والكتاب السّحريّ



وصلت إلينا هذه الحكاية الرّائعة على متن ورقتَي بردي يعود تاريخ كتابتهما إلى بداية فترة حُكم الأُسرة المالكة الإغريقيّة البطليموسيّة (القرن الرّابع قبل الميلاد)، إحداهما محفوظة في متحف القاهرة والثّانية في متحف لندن. ومحتملٌ جِدًّا أنّ بَطَلَيْ هذه القصّة « سِتني » و« نانفر » يصوّران نموذجًا ينطبق على شخصيّة « خايمواست »، وهو أحد الأبناء المفضّلين لرمسيس الثّاني. وكان هذا الأمير، مثل بَطَلَيْ القصّة، مولَعًا بالسّحر أيضًا، ولم يستلم قَطّ مقاليد الحُكم لأنّه توفّي قبل والده، ولكنّه مارَس في مدينة « منفر » مهامًّا سامية بوصفه كاهن معبد « بتاح ».

يُروَى أنّ أميرًا يُدعى « سِتني » كان واسع العلم شغوفًا بكل ما يتعلق بالسحر. ولم يكن والده إلّا الملك رمسيس ذاته. يومًا بعد يوم، كان الأمير يقضي جُلّ وقته في مدائن الموتى الشاسعة المتاخمة لمدينة « منفر ». وهناك، راح يقرأ بلا كلل أو ملل كلّ ما يقع عليه بصره من أوراق بردي وكتابات على النُّصب ونصوص على جدران الأضرحة...

وذات يوم، التقى عند مدخل أحد المعابد كاهنًا طاعنًا في السن، و قال له :

— أيها الأمير سِتني، إنك تُهدر وقتك في فكّ رموز كتابات لن تزيد إلى علمك شيئًا، ومن الأجدى لك لو تهتمّ بالكتاب السحري الذي ألّفه « تحوت » السيد الأعلى للمعرفة بيديه !

لم يصدّق ستني ما تسمعه أذناه، وصرخ متحمّسًا من فرط الإثارة :

— ولكني لم أكن أعلم حتى بوجود مثل هذا الكتاب ! أخبرني بسرعة أين يمكن أن أجده !

— إنه بداخل ضريح « نانفر »، اعثر على القبر وستجد الكتاب !

وعلى عَجل، انطلق ستني رفقة أخيه في الرضاع « إيناروس » للبحث عن القبر المطلوب. وبحث الرجلان طوال ثلاثة أيام قبل أن يجداه أخيرًا.

ونزلا إلى عمق القبر ومن غير تمهّل حتى بلغا غرفة الدفن. حيث كان نور ساطع يملؤها ضياءً. قال ستني لأخيه وهو يُغالب أحاسيسه التي أطبقت على حلقه :

— انظر ! الكتاب هنا. هو ما يبعث الضوء في كل شيء !

وعندئذ، تقدم ليمسك به، ولكن قبل أن تصل إليه يداه، برز نانفر خارج نعشه وأخذ الكتاب وضمه بقوة إلى صدره.

كان ستني قد شرع في ارتياد عالم الأموات وعالم السحر منذ زمن طويل، فلم يتفاجأ أو يرتعب من انبعاث هذا الميت. ولأنه يعلم الطريقة المُثلى لمخاطبة الموتى ويعرف قواعد الأدب في التعامل معهم، سأل ستني محدّثه من يكون وما هي الظروف المُحزنة التي أفضت به إلى هذا المكان. فأجاب الآخر :

« أنا نانفر ابن الملِك « مرنبتاح » وخليفته على العرش. أنجبت وزوجتي « أحورع »، التي هي أختي أيضًا، طفلًا أسميناه « ميرب » أحببناه وأغدقنا عليه الحنان. ولكن، بينما كنت أقرأ ذات يوم في بعض الكتابات المنقوشة على معبد « بتاح »، وإذا بي ألاحظ كاهنًا طاعنًا في السن يرمقني بنظراته وهو يضحك، فاقتربت منه لأسأله :

— ما الذي دفعك لتهزأ بي ؟

— أنا لا أضحك عليك، وإنما أضحك على ما تفعل.

— لا أفهم لماذا ! فما المضحك في أن يجتهد المرء في تحصيل العِلم ؟

— إنك ترهق بصرك في قراءة كتابات لا تنفع في شيء، بينما يمكنني، إن أردت، أن أخبرك أين تجد كتابًا خطّه تحوت ذاته حينما كان يعيش على الأرض مع الآلهة الآخرين.

وراودتني الشكوك في تلك اللحظة. ولكنني كنت أحترق رغبةً في الحصول على هذا الكتاب إن وُجد حقًّا. وسألت الشيخ ما المقابل الذي يريده ثمنًا لهذه المعلومة، فقال بأنه سيرضى بمائة وعشرين دابن[1] من الفضة وتابوتين اثنين. وعندها أخذ يشرح لي قائلًا :

— في عُرض بحر « كوبتوس » توجد ستّ علب، موضوعة الواحدة داخل الأخرى. صُنعت الأولى من حديد والثانية من نحاس والثالثة من خشب البلسان والرابعة من العاج وخشب الأبنوس والخامسة من الفضة والسادسة من الذهب، وداخل هذه العلبة السادسة يوجد الكتاب. ولكن لا تحسبنّ الوصول إليها سهلًا، لأنّ جيشًا كاملًا من

1. وحدة لقياس الوزن تعادل حوالي 90 غرامًا.

الثعابين والعقارب القاتلة تسهر على حمايته وتنتشر من حوله، ناهيك عن أن العلبة الذهبية الأخيرة محاصرة بين حلقات ثعبان مُرعب لا يمكن قتله.

لم يكن هذا ليثنيني عن عزمي ! طلبت من والدي الملِك أن يمنحني سفينة من سفنه بكامل طاقمها، ونشرت أشرعتها متّجهًا نحو الجنوب. في بادئ الأمر، عارضَت « أحورع » رحلتي هذه لأنها قدّرت مدى خطورتها، ولكن بعد أن لمست عدم إصغائي لها، عقَدَت العزم على القدوم معي، كما أخذنا معنا صغيرنا « ميرب ».

ولمّا حطت السفينة الرحال بنا في « طيبة »، تزوّدتُ بكميات كبيرة من الشمع وشكلتها على هيئة قارب وبحّارة، وكان يكفي أن أتلو وصفة سحرية كنت أعرفها ليتحوّلوا إلى باخرة وبحّارة حقيقيّين. تركت « أحورع » و« ميرب » على الشاطئ، وأبحرت.

وخلال ثلاثة أيام بلياليها، اندفعت الباخرة الخلّابة تمخر عباب البحر. وكان البحّارة الخارقون يعرفون مهمّتهم جيِّدًا، إذ قادوني مباشرة إلى ثُقب ضخم محفورٍ بين الأمواج. وفي الأعماق، كان في وسعي رؤية الحرّاس المُرعِبين مُحتشدين حول الكتاب السحري.

قرأتُ عليهم تعويذة سحرية قوية كنت أعرفها، فتجمّدوا جميعًا كالتماثيل الحجرية. وهكذا تمكنت من الاقتراب من العُلَب وفتحها الواحدة تِلْوَ الأخرى. ولمّا فتحت العلبة الخامسة المصنوعة من الفضة، وجدت نفسي أقابل الثعبان الخالد وجها لوجه.

صارعته، وفي لحظة من اللحظات وجّهت له ضربة شديدة كانت لتقضي على أيّ ثعبان آخر غيره. واعتقدتُ جازمًا أنّ هذا ما حدث لأنّه لم يُحرّك ساكنًا، ولكن سرعان ما استعاد عافيته وهاجمني. ومرة أخرى، أصبته، وكانت ضربتي من القوة أن شطرته نصفين. ولكن، لَشدّما دُهشت لمّا أخذ الجزآن يقتربان من بعضهما البعض، وإن هي إلّا ثوانٍ حتى التحما مجدَّدًا. ومن دون أن أفقد بأسي، اندفعت مجدّدًا تجاه الثعبان الضخم، وحينما تمكنت من شطره إلى نصفين هذه المرة وضعت كومة من الرمال بين رأسه وذيله. ورغم كل جهوده، لم يتمكّن الثعبان من لملمة جسده ثانيةً، وبات في وسعي وضع يدي على الكتاب الثمين.

فتحته وقرأت فيه. لقد كانت الصيغ التي حواها قويّة إلى درجة لا يمكن تخيّلها، ومكّنتني من إخضاع كلّ الكائنات الموجودة تحت السماء لسيطرتي وسماع كل ما يتكلمون به. كما منحتني المقدرة على رؤية كل شيء في الوقت ذاته، كرؤية الشمس المُشرقة مع القمر يجوب السماء الليلية...

صعدت إلى الباخرة، والفرحة تغمرني، ضامًّا الكتاب إلى صدري. وسدَدْت الثقب الكبير في البحر، ثم أمرت المُجدّفين بأن يسيروا بي إلى الشاطئ. وهناك، أعدتهم بكلمة مني شمعًا كما كانوا في الأصل، هم والباخرة.

سُرّت أحورع بعودتي سالمًا معافى. أما أنا فحِرصًا مني على عدم نسيان أيّ من الكلمات الإلهية المسجّلة في الكتاب، فقد نسختها بعناية على قطعة جديدة من ورق البرشمان وأذبتها في الجعة. ثم تجرعت هذه الجعة فنُقشت الكلمات المقدسة في قلبي إلى أبد الآبدين.

نشرتُ أشرعة السفينة للعودة إلى منفر، وتوقّعتُ سفرًا مريحًا ومن دون عوائق، ولكنني للأسف كنت مخطئًا. في الواقع، كان تحوت المغتاظ من سرقتي للكتاب وقتلي لحارسه، قد ذهب يبثّ شكواه لرع. وكم هو مُرعب أن أروي العِقاب الذي أمر الأب الأكبر أن يُنزل بي.

كنّا نبحر في أمان عبر النهر عندما جُرّ صغيري ميرب بفعل قوة لا تُقاوم ومرّ من أسفل درابزين السفينة. وقبل أن يتمكن أيٌّ من البحارة من التدخل، كان ابني قد اختفى في الماء. وعلى وقع صرخات الفزع التي كانوا يطلقونها، هرعتُ إليهم. ولكنني لم أقوَ على فعل شيء رغم جهودي ووصفاتي السحرية غير سحبه من الماء جثةً هامدة.

وعُدنا إلى كوبتوس وأعيننا تفيض دمعًا حيث حنّطنا الطفل ودفنّاه. ثم قفلنا أنا وأحورع، التي بدا أن لا عزاء يواسيها، راجعين إلى منفر. ولكن لمّا وصلت السفينة إلى المكان ذاته حيث غرق الطفل، سقطت زوجتي أيضًا في الماء. وهذه المرة كذلك لم أقدر على شيء سوى استخراج جسدها وقد فارقته الحياة.

وفي هذه اللحظة بالذات أدركتُ عواقب جريمتي ؛ لقد تحدّيت الآلهة وأردت مساواة نفسي بهم، فلم يغفروا ذنبي. لقد أصبحت خطرًا على من حولي. ووقتئذ، ربطت الكتاب على صدري بشرائط من الكتان الأبيض، ثم، عند اقترابي من الدرابزين، تعرضت لقوة خارقة جرّتني من تحته إلى البحر. وهكذا لقيت حتفي وفقًا لرغبة رع الذي دانني على انتهاكي لمقدساته.

أما باقي الحكاية فيمكنك استنتاجها بسهولة. أُخرجَت جثتي من النهر ودُفنت هنا نزولا عند رغبة والدي الذي منع على أيٍّ كان لمس الكتاب ».

أصغى سِتني لنانفر باهتمام بالغ. وقد زاد ما سمعه عن القدرات السحرية للكتاب، زاد من رغبته في الاستحواذ عليه. فحاول ثانيةً وضع يده عليه. وتصدّى له نانفر مانعًا إيّاه، وقال له :

— ألم تُدرك بعدُ الأخطار التي تهدّد من يحوز الكتاب السحري ؟

فاكتفى ستني بهزّ كتفيه. كان يريد الكتاب، أمّا باقي الأمور فلا تهمّ.

وعندها، اقترح عليه نانفر عرضًا :

— إن كنت تريد الكتاب، فأثبت أنك أهلٌ لامتلاكه واهزمني في لعبة الداما[1].

كان ستني مستعدًّا لفعل أي شيء، وبسرعة، قبل أن يواجهه في اللعب. وُضعت رقعة الداما وأحجار اللعب، وانطلقت الجولة الأولى. فاز نانفر بهذه الجولة، وسرعان ما تلا وصفة سحرية وضرب ستني على رأسه برقعة اللعب، فانغرس في التراب حتى خاصرته. وبدأت الجولة الثانية التي فاز بها نانفر أيضًا، فتلا وصفة سحرية وضرب ستني على رأسه بالرقعة، فغاص جسمه حتى منكبيه. وانتصر نانفر في الجولة الثالثة، ثم نطق بكلمات سحرية وضرب خصمه الذي دخل في الأرض حتى أذنيه.

---

1. لعبة الداما المصرية، التي كانت ذات شعبية كبيرة في كل الأوساط الشعبية، كانت تُلعب على رُقعة بها ثلاثون خانة بأحجار من نوعين ولونين مختلفين. ولكننا نجهل قواعدها.

كان ستني في وضع لا يُحسد عليه. ولكن قبل أن تنطلق الجولة الرابعة، والتي قد تكون الأخيرة بالنسبة له، راودته فكرة، وقال لإيناروس :

— اركض إلى القصر واجلب لي تميمة بتاح القوية، ستجدها داخل خزنة الملِك. إنّها السبيل الوحيد لنجاتي !

انطلق إيناروس بسرعة الريح وعاد في ذات اللحظة التي أنهى فيها نانفر الجولة الخامسة فائزًا، وهَمّ بدفن ستني تحت الأرض ؛ فوضع إيناروس تميمة بتاح على رأس شقيقه في الرضاع، وإنْ هي إلّا لحظات حتى برز فوق التراب بكامل القوة والعافية.

ودون أن يكترث لنانفر، استولى سِتني على الكتاب وغادر القبر الذي أضحى منذ تلك اللحظة غارقًا في الظلام. وعند خروجه، سمع صوت نانفر من بعيد وهو يصرخ :

— أيها الأمير سِتني، إنك تُخطئ في عدم الإنصات لي ! سأجبرك على إرجاع الكتاب وأنت تحمل عصا ذات أشواك بيديك، وموقد جمر ملتهب على رأسك. أقسم بذلك قسمًا مبرمًا !

صَمّ سِتني أذنيه وقفل راجعًا إلى القصر مباشرة وقد اعتراه الفرح لحصوله على ما كان يصبو إليه. وذهب لرؤية والده ويطلعه على ما وجد. ولكن الأب الحكيم نصحه :

— من الأفضل لك أن تعيده حيث وجدته. إنه الحلّ العقلاني الوحيد كيْ لا تُشعل غضب الآلهة عليك.

ولكن ستني لم يُصغِ إليه، ونال العقاب بدوره. وفيما يلي رواية ما حدث :

ذات يوم، لمح سِتني، وهو يمرّ بجوار معبد بتاح، فتاةً خلبت بجمالها قلبه. ومن أول نظرة، شعر نحوها بشغف قويّ أنساه حتى من يكون أو أين يوجد. وحالما تمالك نفسه قليلًا، اقترب منها وقال :

— يا جميلتي، هل لك أن ترافقيني إلى منزلي، وسأمنحك كل ما ترغبين به !

رمقته المرأة بنظرة ازدراء قبل أن تردّ عليه :

— من تعتقدني أكون ؟ إنني لست امرأة عادية، فأنا البنت الوحيدة لكاهن من كهنة الإلهة « باستت »، واسمي « تابوبو ». إن كنت تريد مقابلتي، فعليك بالحضور إلى مقر سكناي في بر باست[1] !

ثم انصرفت.

ودون انتظار، جهّز سِتني مركبًا للسفر. ورغم معارضة مَن حوله لهذا الشغف المفاجئ، رفض الإصغاء لكلامهم وشدّ

1. هي عاصمة « النوم » (المقاطعة)، وهذه المدينة مشهورة أكثر باسمها الإغريقي « بوباستيس ».

رحاله نحو الشمال. وفور وصوله إلى « بر باست »، سارع إلى بيت جميلته التي استضافته في شقّة فاخرة زُيّنت بأحجار اللازورد والفيروز. قال ستني وهو يرتجف كُلّيًا من فرط شغفه.

— لقد قدِمت إليك كما طلبتِ. والآن دعيني أضمّك بين ذراعاي !

قطّبت المرأة حاجبيها قبل أن تجيب :

— من تعتقدني أكون ؟ إنني لست امرأة عادية ! إن أردت أن تضمّني بين ذراعيك فعليك أن تكتب عقدًا رسميًا يخوّلني مشاركتك في ممتلكاتك وثرواتك.

أسرع ستني في طلب الكُتّاب الذين حرّروا الوثائق المطلوبة. وما إن جهزت الوثائق حتى وقّع عليها، وصارت بذلك تابوبو زوجته الشرعية. ثم قال لها :

— الآن وقد أضحينا زوجًا وزوجة، هلمّي بنا إذن إلى الغرفة !

بَيْد أنّ الجميلة هزت كتفيها وأجابته :

— من تعتقدني أكون ؟ امرأة عادية ؟ قبل أن أشاركك الفِراش لا بد أن يُمضي أبناؤك على الوثائق نفسها التي أمضيت عليها أنت ؛ وهكذا لن يُنازعوا الأبناء الذين سنُنجبهم أملاكنا.

قصد ستني أبناءه وطلب منهم التوقيع على الوثائق المعنية، فامتثل الأبناء لطلبه، ذلك أنهم كانوا يكنّون لوالدهم الاحترام.

وحينها خاطب ستني تابوبو :

— الآن وقد أرضيت رغباتك، هيا بنا إلى مضجعنا !

ولكن الجميلة عبست بوجهها وردّت :

— إنك، بلا شك، تحسبني امرأة عادية. اعلم بأنك لن تنال مني شيئًا إذا لم تقتل أبناءك. وهكذا لن يتسببوا لاحقًا في أذيّة مَن سننجب من أبناء إذا ما اختلفوا حول الميراث !

لقد وقع ستني، كما نرى، ضحية الفتنة. أمّا المرأة فقد بعثتها الآلهة لمعاقبته على السرقة التي ارتكبها في القبر. فوافق، وقد أعمى الشغف بصيرته، على اقتراف هذا الجُرم الشنيع قائلًا ببساطة :

— لا أمانع أن يحدث هذا الأمر الفظيع، إذا كانت هذه رغبتك !

وحينها قتلت تابوبو أبناء ستني أمام عينَي والدهم، ثم قطّعتهم إربًا إربًا وأطعمتهم للقطط.

وطلب ستني مجدّدًا :

— الآن وقد تحقق ما طلبتِ، أرجوك أن تأتي للاستلقاء بجانبي.

لم تُجب تابوبو بكلمة. أمسكته من يده وقادته إلى غرفة متوارية بين أوراق الحديقة الخضراء، وهناك كان يوجد سرير منخفض مصنوع من العاج والخشب الثمين حيث استلقيا جنبًا إلى جنب، ومدّ ستني، الذي كان يرتعد كليًا من شدّة الانفعال، يده إليها. ولكن، قبل حتى أن يلمسها، أطلقت الفتاة صيحة كبيرة أفقدت ستني وعيه.

وعندما استعاد إدراكه، كان كل شيء قد اختفى، الغرفة والحديقة والبيت وخاصة الحسناء تابوبو. ولكنه لم يشعر بأيّ أسف لذلك، بل على العكس، همدت رغبته واعتراه السرور لأنها لم تعد هناك، خصوصًا وأنّ الأفكار حول جريمته النكراء عادت لتُراوده، واجتاح ضميرَه عذابٌ رهيب.

جلس ستني يروي الأرض بدموعه المُرّة، ثم لمح أمامه شخصًا وقورًا محمولاً على كرسي. ألقى الغريب إلى ستني بثوب لأنه كان عاريًا، ثم قال له :

— عُد حالًا إلى منفر يا أيها الأمير ستني ! فأبناؤك في انتظارك !

— أبنائي ؟! قال الأب المسكين في لعثمة. ولكنهم...

— أصغِ لِما أقوله لك. اذهب ! واشكر الآلهة على رأفتهم بك !

وحينئذ، اختفى الغريب كما جاء. وعجّل ستني، وقد استعاد بعض الأمل، بوضع الثوب عليه والجري إلى الميناء حيث

ينتظره مركبه. لقد بدا له الطريق إلى منفر طويلًا جِدًّا، ولم يكن يعلم ما الذي سيجده هنالك. ولمّا وصل أخيرًا ركض نحو القصر، وكان أبناؤه هناك بنفس الجمال والجاذبية التي تركهم عليها. أقام لهم الأفراح وظلّ يقبّلهم ويداعبهم لأوقات طويلة.

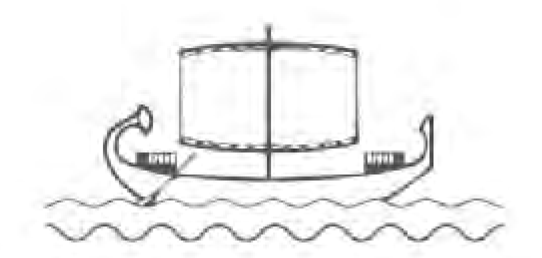
وفي صباح اليوم التالي، مع حلول الفجر، أمسك في يده عصا ذات أشواك ووضع على رأسه موقد جمر متوهّج ونزل إلى قبر نانفر مجدّدًا وهو يحمل الكتاب السحري. قال عند وصوله :

— أيها الأمير نانفر، سامحني على عدم الإصغاء لكلامك وعلى سرقتي للكتاب الذي كنت تحرسه. ها هو ذا، احفظه ! أما أنا فلا أريد أن أسمع شيئًا عنه بعد الآن.

ولاحقًا، لم ينزل سِتني ثانيةً إلى غرفة الدفن في قبر نانفر إلّا مرّة واحدة. عاد في موكب فخم ليضع نعشَي أحورع وميرب بعد أن بحث عنهما في « كوبتس ». وهكذا اجتمع الأب والأم والابن إلى الأبد.

وبعد هذا، سُدّ مدخل القبر واختفى تحت الحجارة والرمال. ومُذّاك، لم يُسمع قَطّ أيّ خبر عن كتاب تحوت السحري. ومن المحتمل أنه لا يزال موجودًا في قبر نانفر، في مكان ما داخل مدينة الأموات الشاسعة على تخوم منفر.

حكاية الغرق



ثمّة احتمال كبير بأنّ هذه الحكاية كُتبت هي أيضًا إبّان عهد الأسرة الحاكمة الثانية عشر[1]، والّذي كانَ عصرًا ذهبيًّا حقيقيًّا للأدب المصريّ القديم. وقد أطلعتنا عليها مخطوطة وحيدة محفوظة في سانْ بطرسبرغ ؛ إنّها ورقة بردي لا تزال في حالة جيّدة لا يتعدّى طولها 380 سنتيمترًا وتحوي في المُجمل 189 سطرًا، منها 136 سطرًا عموديًّا و53 سطرًا أفقيًّا. ولا أحد يعلم أين وُجدت، أو كيف وصلت إلى روسيا.

إنّ مشاريع الإنسان تحفّها المخاطر من كل جانب، والحظّ الذي يبتسم لك يومًا، يدمّرك في اليوم الموالي.

1. انظر مقدّمة وحواشي « قصّة سنوحي ».

هذه الأفكار هي ما كان يجول بخاطر رَجلٍ جالس في مؤخّرة باخرة سائرةٍ عبر النهر. إنّ الخيبة على محيّاه والقلق على هيئته يوحيان بأنّ شعورًا بالضيق يخنقه، وأنّ ما قد يحدث في المستقبل يُثير خوفه. ألّب مظهر هذا الشخص فضول أحد المسافرين، فاقترب منه وسأله :

— يا صديقي، يمكنني أن أخمّن من هيأتك بأنك واقع في ورطة. أخبرني عنها، وإذا استطعت مساعدتك، وإنْ بإسداء النصيحة، فسأفعل عن طيب خاطر.

وعندئذ، روى له الرجل ما يُحزنه. لقد كان يشتغل رُبّان سفينة غرقت حينما كان عائدًا من رحلة طويلة، ولحسن الحظ، خرج أفراد الطاقم جميعهم سالمين، ولكن السفينة ضاعت بالشحنة التي كانت تحملها. وختم الربّان قائلًا :

— إنني أخشى ردّة فعل الملِك. سيُحمّلني مسؤولية الخسائر التي تكبّدها، وقد يُنزل بي عذابًا شديدًا ؛ ولهذا تراني مشغول البال، ذلك أنني لا أعرف كيف أشرح له الأمر.

قال المسافر الآخر :

— بمنتهى البساطة، كلّمه بهدوء دون مبالغة ولا تُخفي عنه شيئًا من الحقيقة. سأقصّ عليك حادثة مؤسفة وقعت

لي أنا شخصيًا، أعتقد أنّها قد تكون مفيدة لك. وجعل المسافر يسرد القصّة التالية :

« لقد كنتُ رُبّان سفينة ضخمة الحجم، إذ بلغ طولها مائة وعشرين ذراعًا وعرضها أربعين ذراعًا. وكان يخدم عليها طاقمٌ من مائة وعشرين فردا، لا ينقصون فردًا، وكانوا كلّهم بحّارة ذوي بأس، وشجاعة وخبرة كبيرة.

رفعنا أشرعتنا وانطلقنا عبر « الأخضر الكبير » في اتّجاه مناجم الملِك. ولم يلحظ رجال المناوبة المكلفون بمراقبة البحر أيّ شيء غير عادي، وبدا أنّ كل الأمور تسير في يُسر، ذلك أنّ ريحًا هادئة كانت تبتعد بنا عن الميناء بلطف.

وفجأة، اندلعت عاصفة هوجاء عنيفة لا نعلم من أين جاءت. واستحالت علينا العودة إلى اليابسة رغم كل الجهود التي بذلناها، وأخذت أمواجٌ ذات ثمانية أذرع ارتفاعًا تلطم السفينة دون توقّف حتى دمّرتها، فغرقت وغرق معها كل بحّارتي، ولا أحد منهم نجا. أمّا أنا فكنت أكثر حظًّا منهم، وبقيت طافيًا على السطح إلى أن ألقت بي موجة على رمال إحدى الجزر.

قضيت ثلاثة أيام كاملة مُلقًى على حافة الشاطئ تحت ظل إحدى الأشجار، وصرت محطّمًا بسبب خوفي الشديد وحزني على فقدان طاقمي، ولكني أفلحت في النهوض

مدفوعًا بالجوع والعطش. وما كان عليّ أن أمشي طويلًا، إذ سرعان ما عثرت على كميات معتبرة من التين والعنب، ناهيك عن أنواع عديدة من الخضر، وكانت أكبر وأجمل من تلك التي تزرعها يد الإنسان. تناولت بعضًا منها نيئًا، وأوقدت نارًا لأطهوَ الأخرى، دون أن أُغفل منح الآلهة نصيبها شكرًا لها على حفظها لحياتي.

وعندها، حدثت جلبة هائلة كأنها أصوات رعد؛ فاعتقدت أنها موجة عملاقة قد ارتطمت بالشاطئ، ثم شرَعَت الأرض تهتزّ من تحتي والأشجار من حولي تُصدر حفيفًا مخيفًا.

ولشدة الخوف، احتضنت يداي وجهي تلقائيًا، ثمّ فرجت بين أصابعي قليلًا لرؤية ما يحدث، فلمحت ثعبانًا خارقًا في هيأته وحجمه قادمًا نحوي. كان طوله لا يقلّ عن الثلاثين ذراعًا، فيما بلغت لِحيَته الذراعين، وكانت زعانف جلده من الذهب وحواجبه من حجر اللازورد المُصْمت. وبسرعة، انبطحتُ ساجدًا أمامه، وقد اختلطت بداخلي المشاعر بين الخوف والاحترام.

استمرّ الثعبان في تقدّمه صوبي ببطء وهو يقول:

— ما الذي جاء بك إلى هذا المكان يا صغيري؟ ما الذي أحضرك إلى غاية هذه الجزيرة؟ أخبرني بسرعة، وإلّا

حوّلتك إلى ذَرّة رماد متناهية في الصغر تعجز العيون عن إبصارها.

أجبته :

— آه ! إنك تكلّمني، أعلم بأنك تكلّمني، ولكنّي لا أفقه شيئًا ممّا تقول. لقد جرّدني الخوف، وأنا أقف بين يديك، من كل فطنتي وذكائي.

وحينها، التقمني في فمه وأخذني إلى جحره دون أن يمسّني بأيّ سوء، وهناك وضعني على الأرض بهدوء، ونزلتُ سليمًا معافى.

ثم فتح فمه من جديد، وقال :

— إذن، ما الذي جاء بك إلى هذه الأرض التي تحوط مياهُ « الأخضر الكبير » شواطئها من كل جانب ؟

فأجبته راويًا له مغامرتي التعيسة، وأنا مُنبطح أمامه على بطني وذراعاي ممدودتان :

— كنت مبحِرًا إلى مناجم الملِك على رأس سفينة ضخمة، ولكن عاصفةً باغتتنا، فدمّرت باخرتي وأغرقت بحّارتي. أمّا أنا فقد شملتني الآلهة بالعناية، وحملتني موجةٌ إلى الشاطئ بدلًا من أن تسحبني إلى قعر البحر ؛ وهكذا نجوت وبلغت هذه الجزيرة.

وقتئذ، قال لي الثعبان بلطف :

– الآن يمكنك أن تنسى مخاوفك يا صغيري، فلا شيء يدعوك لذلك. من الواضح أن الآلهة قد قدّرت لك الحياة، ذلك أنها أوصلتك إلى هنا بصحّة وسلامة. إنك على جزيرة تُدعى جزيرة كا[1]، وهي أرض زاخرة بالخيرات، إذ يتوفر فيها كل شيءٍ خُلِق على البسيطة.

وأنا أصغي إليه، أدركت بأن لا خطر يتهدّدني، وشعرت بحالٍ أفضل. ثم طفق يحدّثني عن أهمّ ما كنت أريد سماعه، وقال :

– ستقضي هنا أربعة أشهر كاملة، وبعدها ستحلّ باخرة من وطنك عليها بحّارة تعرفهم، وسيصحبونك معهم إلى البلاد التي كنت تعيش فيها. وستموت يومًا ما، ولكن في مدينتك وبيتك وليس هنا، وريثما يحدث ذلك، ستُسعد بحكاية مغامراتك لكل من يريد سماعها. فَكَمْ هو مُمتعٌ أن يستحضر المرء اللحظات الحرجة التي مرّ بها بعد انقضائها.

وجعلت ألامس الأرض بجبهتي مرّة بعد مرّة شكرًا للثعبان الضخم على رأفته بي. ثم أضاف الثعبان :

1. وتعني « جزيرة الروح »، أو « الجزيرة المسحورة ».

— اصبر، فستتمكن من ضمّ زوجتك وأبنائك بين ذراعيك مجدّدًا. إنها لسعادة، منتهى السعادة، أنا محروم منها. لقد كانت هذه الجزيرة سالفًا آهلة بثعابين مثلي. كنّا كثيرين بحيث بلغنا خمسة وسبعين ثعبانًا، بينهم صغاري وصغار الثعابين الآخرين. غير أن إحدى النجوم سقطت علينا وأحرقت الجميع، صغاري ووالدَي وأصدقائي وأقراني. ذلك اليوم، كنت بعيدًا عن الجزيرة، وحينما رجعت لَم أجِد إلّا كومة كبيرة من الجثث، فلا أحد نجا ؛ وكِدتُ أموت كمدًا وحزنًا.

وهنا، وَجَم الثعبان الضخم، وبقيت صامتًا للحظات احترامًا لحزنه. ثم، عندما وجدت الوقت مناسبًا لمُباشرة الحديث، قلت له :

— سيدي، سوف أحكي لملِك الأرضين عن جَليلِ أفعالك وعظمتك. سأخبره عن العجائب التي يمكن مشاهدتها على جزيرتك، وسأجلب من أجلك سفينة ضخمة محمّلةً بكل خيرات مصر، سِيَما العطور بمختلف أنواعها والصمغ المُستخرج من شجرة « الترينت » الذي نُحرقه بخورًا في المعابد.

وعندئذ، انفجر الثعبان ضاحكًا وقال :

– إنك تتفوّه بالحماقات يا صغيري. كل هذه العطور التي تريد إهدائي إياها، وهذا البخور، كلها موجودة بوفرة على جزيرتي، ورجال مصر يجلبونها إليكم من هنا. واعلم بأنك ما إن تغادر هذه الجزيرة حتى تبتلعها الأمواج.

وبعد مرور أربعة أشهر بالتمام والكمال، لاحت في الأفق أشرعة إحدى السفن. اعتليت شجرة لتتضح الرؤية لي أفضل واستطعت أن أميّز بين البحّارة بعضًا من معارفي ؛وحينها ركضت لأُعلم الثعبان الضخم الذي قال لي :

– أرأيت بأنك نلت جزاء صبرك خيرًا. وكما توقعت لك، ستلتحق قريبًا بأهلك وتحتضن أطفالك. ولا أطلب منك إلّا أن تذكرني وتتحدث بالخير عنّي.

وقَطَعتُ له وعدًا صادقًا بذلك، لأنني كنت في غاية الامتنان على ما أسداه لي من معروف. وقد زاد تقديري له حينما رأيت الهدايا التي حضّرها من أجلي، كانت من بينها عطورٌ من مختلف الألوان والأنواع، وكحل العين والبخورات والعاج وقطعان من الزراف وفرس البحر والقرود من مختلف الأشكال والكثير من السِّلع الباهظة الأثمان.

جَثوتُ أرضًا شاكرًا إيّاه ومُوَدّعًا، ثم قصدت الشاطئ. وهناك، ساعدني البحّارة على نقل أمتعتي وهداياي على متن

السفينة، ثم باشرنا طريقنا في اتجاه الشمال، وبعد شهرين من الإبحار دون حوادث، بلغنا مقصدنا. ومثَلتُ بين يدي الملِك الذي بُهر أيّما انبهار بما أحضرت له، وأجزل لي الشّكر مطوّلًا على مرأى ومسمع من البلاط بأسره، واصطفاني صديقًا ورفيقًا له، ثم عَهِد إليّ بإدارة قطعة أرضٍ بفلّاحيها المشتغلين عليها.

وهنا وصل الغريق الأسبق إلى ختام كلامه فقال: خُذ بنصيحتي. اعتبر من تجربتي، واذهب مباشرة إلى الملِك، فالذي وفّقني لأحقق النجاح لا بد وأن يوفّقك أنت أيضًا لذلك. لقد أخفقتُ مثلك في إنجاز مُهمّتي، ولكنني لم أتعرّض لأيّة عقوبة. وسترى بأنك ستنجو دون أن يَمسّك أيّ أذى ».

ولكنّ الرّبّان الذي فقد سفينة أطلق تنهيدةً وهو يهزّ بكتفيه، وقال للغريق الأسبق :

— لا تُحاول أن تتذاكى عليّ ! فمن ذا يكترث بتقديم الماء للإوزّة عند الصباح، بينما ستُذبح قبل حلول المساء ؟

لو أنّ الرّبّان كان يحمل، هو كذلك، كميات من الهدايا الثمينة يقدّمها للملِك تعويضًا عن خسائره، ما كان لِيُساوره أدنى قلق من ردّة فعله.

فهرس

أنجز طبعه في أفريل 2019
على مطابع ع. ڨرفي - بـاتنــة - الجزائر